اسم الله (الحليم) في الذكر الحكيم

دراسة بلاغية سياقية

إعـداد

دكتور/ حسام عوض الله علي الشامي

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية

بإيتاي البارود - جامعة الأزهر

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤م

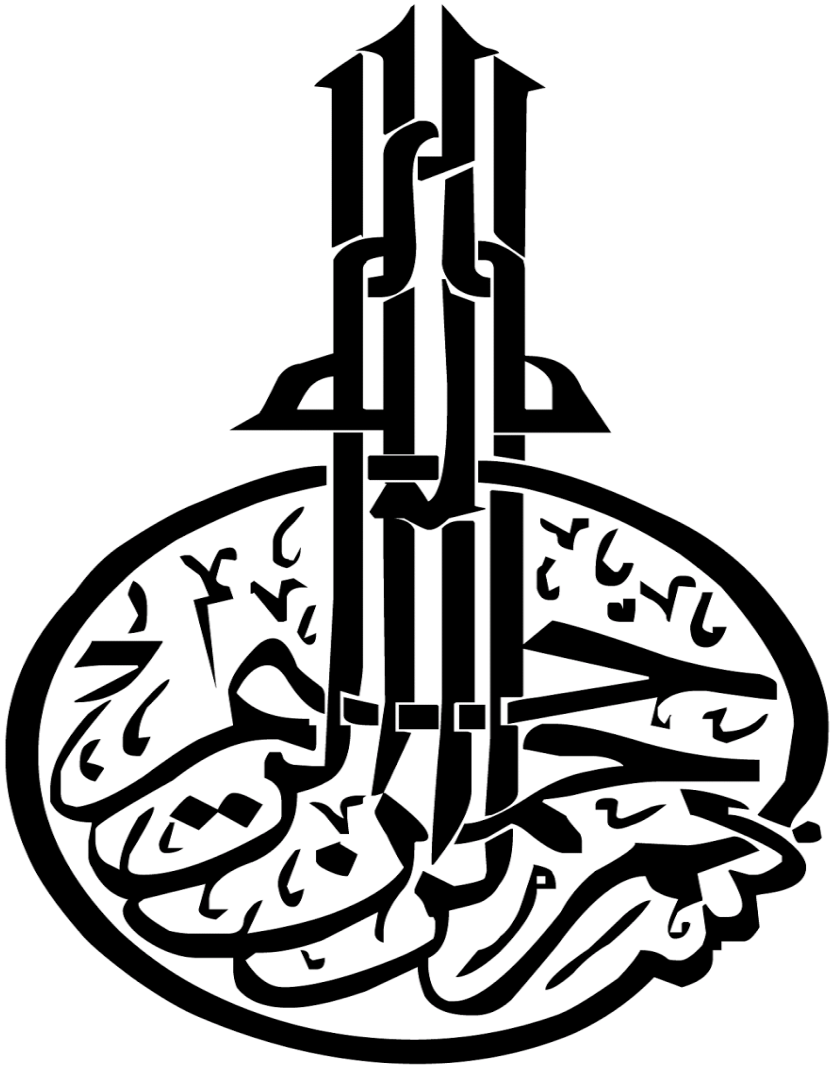

اسم الله (الحليم) في الذكر الحكيم -دراسة بلاغية سياقية

حسام عوض الله علي الشامي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جمهورية مصر العربية

البريد الإليكتروني:

dhoasmelshamy@gmail.com

ملخص البحث:

مما لفت نظرىٰ حال تدبر كلام رب العزة تبارك وتعالي اسمه عز وعلا (الحليم) ، وقد ورد لفظ (الحليم) في مقامات كثيرة ، بحسب المقامات لاستكشاف وفائها بحق المقام والسياق الذي وردت فيه بحيث لا يفي بحق المقام الذي جاءت فيه سواها، ولا يؤدي دورها غيرها . المنهج المتبع: هو المنهج التحليلي الشامل بمعونة الاستقراء والتحليل للآيات القرآنية، واستنباط الخصاص البلاغية ودورها في تجلية المعني المراد من خلال استحضار السياق والمقام. ومن أهم النتائج التي ظهرت في البحث:

لم يرد اسم الله (الحليم) منفردًا في الفاصلة، وإنما أتي مقترنًا؛ لينتج عن الاسمين الكريمين معني دقيقًا خفيًا يشع من بين جنبات الاسمين، وهذا من أشرف المعارف. اقتران (كان) بالذات العلية في الأمور العقائدية كما ورد في سياق التنزيه وتسبيح المخلوقات، والزوال للأرض والسماوات. اقتران الاسمين الجليلين في نهاية الآيات؛ للتنبيه علىٰ أن الأحكام الواردة المتعلقة بما يصلح أحوال الناس، كالزواج والميراث والإنفاق والهجرة في سبيل الله، مما يساعد في ترسيخ تلك الجوانب في بناء هذه الأمة، وفيها من التحذير والتخويف، لأنها تؤدي إلىٰ الثواب والعقاب يوم لقاء الله رب العالمين. وبعد فإن تدبر مطارح لفظة ما، وإبصار مواقعها في آيات الله هو من النصيحة لكتاب الله -عزوعلا- وما من ريب في أن تحرير معاني الألفاظ في معجمات العربية قائم علىٰ إبصار مواقعها في سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة، وذلك لأمر

ظاهر قاهر، هو أن للسياق نورًا – ولاسيما في الكتاب العزيز– يشع في دلالة اللفظ، يصير اللفظ فيه لؤلؤة منظومة في عقد من اللآلئ فإذا أنبتها عن موضعها انفرطت حبات العقد وانطفأ وهج تلك اللؤلؤة، وهو كلام يحتاج إلىٰ تبيان وإيضاح بالرجوع باللفظ إلىٰ سياقاته

الكلمات المفتاحية: اسم الله (الحليم)، الحليم في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية، سياقية.

Der Name Gottes (Al-Halim) im weisen Mann - eine kontextuelle rhetorische Studie

Hussam Awad Allah Ali Al-Shami
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language in Itay Al-Baroud - Arab Republic of Egypt
Emial: dhoasmelshamy@gmail.com

Abstract:

Institut für Rhetorik und Kritik - Fakultät für Arabische Sprache in Itay Al-Baroud - Arabische Republik Ägypten

Zusammenfassung der Forschung, die mir ins Auge fiel, als ich die Worte des Herrn der Herrlichkeit gesegnet und erhaben namens Allmächtiger (Halim) betrachtete, wurde das Wort (Halim) in vielen Schreinen erwähnt, entsprechend den Heiligtümern, um die Erfüllung des Rechts des Ortes und des Kontextes, in dem es empfangen wurde, zu erforschen, so dass es nicht dem Recht des Ortes entspricht, an dem es kam, und seine Rolle als Anderer nicht erfüllt. Der Ansatz folgte: Es handelt sich um einen umfassenden analytischen Ansatz mit Hilfe der Induktion und Analyse von Koranversen und die Ableitung rhetorischer Merkmale und ihrer Rolle bei der Manifestation der beabsichtigten Bedeutung durch Evozieren des Kontextes und des Nenners. Zu den wichtigsten Ergebnissen, die in der Forschung auftauchten, gehört: Der Name Gottes (Halim) wird nicht allein im Komma erwähnt, sondern kam in Verbindung mit den beiden edlen Namen, um eine verborgene präzise Bedeutung zu erzeugen, die zwischen den Seiten der beiden Namen hervorstrahlt, und dies ist eine der ehrenvollsten Erkenntnisse. Die Verbindung von (war) mit dem Höheren Selbst in lehrmäßigen Angelegenheiten, wie sie im Zusammenhang mit der Erhöhung und dem Lobpreis der Geschöpfe und der Vergänglichkeit der Erde und der Himmel erwähnt wird. Die Verbindung der beiden großen Namen am Ende der Verse, um zu warnen, dass die Urteile sich auf das beziehen, was für die Bedingungen der

Menschen angemessen ist, wie Heirat, Erbschaft, Ausgaben und Migration um Allahs willen, was dazu beiträgt, diese Aspekte beim Aufbau dieser Nation zu festigen und in ihnen vor Warnung und Einschüchterung, weil sie zu Belohnung und Bestrafung am Tag des After the contemplation of the words of a word, and the sight of their positions in the verses of God is one of the advice to the Book of God - Azola - and there is no doubt that the liberation of the meanings of words in Arabic dictionaries is based on seeing their positions in the contexts of the words of the Arabs and the verses of God and wisdom, and that is an apparent compelling matter, is that the context has light - especially in the dear book - radiates in the significance of the word, the word becomes a pearl system in a necklace of pearls, if it scolds it from its place, the beads of the necklace break and the glow of that pearl is extinguished, It is a speech that needs to be clarified and clarified by referring verbally to its contexts.

Keywords: Der Name Gottes (Al-Halim), Al-Halim im Heiligen Koran, Eine rhetorische Studie, Kontextuell.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله – ﷺ– رحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلىٰ أصحابه وأحبابه الغر الميامين، ومن تبعهم مُحسنًا إلىٰ يوم الدين أما بعد،

فإن تدبر مطارح لفظة ما، وإبصار مواقعها في آيات الله هو من النصيحة لكتاب الله –عزوعلا– وما من ريب في أن تحرير معاني الألفاظ في معجمات العربية قائم علىٰ إبصار مواقعها في سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة، وذلك لأمر ظاهر قاهر، هو أن للسياق نورًا – ولاسيما في الكتاب العزيز– يشع في دلالة اللفظ، يصير اللفظ فيه لؤلؤة منظومة في عقد من اللآلئ فإذا أنبتها عن موضعها انفرطت حبات العقد وانطفأ وهج تلك اللؤلؤة، وهو كلام يحتاج إلىٰ تبيان وإيضاح بالرجوع باللفظ إلىٰ سياقاته(١).

وإبصار اللفظ في سياقه هو الطريقة في فقه المعني وهو واجب شرعي، يقول الإمام الشاطبي– رحمه الله تعالي–"أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان؛ فالذي يكون علىٰ بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلىٰ أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت علىٰ جمل؛ فبعضها متعلق بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام علىٰ أوله، وأوله علىٰ آخره، وإذ ذاك يحصل

(١) وراء مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم أد/ إبراهيم صلاح الهدهد، حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد ١٣، صـ١٦٩.

مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلىٰ مراده"[1].

ومما لفت نظري حال تدبر كلام رب العزة تبارك وتعالي اسمه عز وعلا (الحليم)، وقد ورد لفظ (الحليم) في مقامات كثيرة، بحسب المقامات لاستكشاف وفائها بحق المقام والسياق الذي وردت فيه بحيث لا يفي بحق المقام الذي جاءت فيه سواها، ولا يؤدي دورها غيرها.

ومن ثم فقد عقدت العزم علىٰ تلمس أسرار تلك المعاني السامية عظيمة القدر في بحث يكشف عن أسرارها ودقائق خفاياها، فجاء بعنوان:

" **اسم الله (الحليم) في الذكر الحكيم دراسة بلاغية سياقية** ".

❁ هدف الدراسة:

توعية المجتمع المسلم بمعرفة أسماء الله الحسني، والتحلي بها ونشرها بين الناس، فهي دأب الأنبياء والمرسلين، وسمت الحكماء الصالحين.

❁ إشكالية البحث:

١- الكشف عن أثر تنوع الصيغ التي ورد فيها اسم الله(الحليم)، ولماذا أتي (الحليم) لاحقًا في مقامات، وسابقًا في أخرىٰ؟

٢- التعليل لتنوع مقامات الحلم في القرآن الكريم، حيث ورد في أمور مهمة تعالج الجوانب العقائدية والأسرية والدينية والاجتماعية والسياسية، من أجل تثبيت

---

(١) الموافقات العلامة الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان دار ابن عفان، ط: الأولىٰ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ٤/ ٢٦٦.

المؤمنين وترسيخ تلك المبادئ في نفوسهم والتعامل بها في مواجهة المحن والأزمات كما سيتضح في هذا البحث.

٣- معرفة دور الخصائص البلاغية في الكشف عن اسم الله (الحليم)، فتارة يأتي بمؤكد واحد، وتارة بأكثر من مؤكد، وتارة بلا تأكيد، وتارة يقترن بـ (كان مع لفظ الجلالة أو الضمير.

❁ **المنهج المتبع في الدراسة:**

هو المنهج التحليلي الذي يعتمد علىٰ النظرة الشمولية، بمعونة الاستقراء والتحليل للآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر اسم الله (الحليم) وربطه بسياقاته وتنوع مقاماته، محاولة للوصول لبعض الأسرار البلاغية لهذا الاسم الجليل.

❁ **الدراسات السابقة**

لم تفرد دراسة مستقلة حسب ما نما إليه علمي في تناول اسم الله (الحليم) بالدراسة والتحليل، ومن الطبعي وجود بعض الرسائل العلمية في الدراسات القرآنية الخاصة بأسماء الله الحسني، أو بعض السور التي ورد فيها ذكر اسم الله (الحليم).

❁ **خطة البحث:**

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد، وأربعة محاور، وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع، وفهارس متنوعة.

المحور الأول: دلالة اقتران المغفرة بالحلم.

المحور الثاني: دلالة اقتران العلم بالحلم.

المحور الثالث: دلالة اقتران الغني والشكر بالحلم.

المحور الرابع: تقديم الحلم على المغفرة.

وشفعت البحث بخاتمة فيها أهم نتائج الدراسة، وفهارس متنوعة.

وبعد فقد بذلت جهدًا في بحثي هذا فإذا وفقت فهذا ما سعيت لتحقيقه وإن كان غير ذلك فأستغفر الله عما زل به القلم من اجتهاد أو تحميل الآية ما لا تحتمل ويبقىٰ النقص ملازمًا للبشر.

التمهيد

تعريف الحلم:

الحِلْمُ: الأَناةُ والعقل، وجمعه: أَحْلام وحُلُومٌ. والحِلْم خلافُ الطَّيْش. يقال: حَلُمْتُ عنه أحلُم، فأنا حليمٌ، ويدور حول أصول ثلاثة: الأول ترك العجلة، والثاني تثقب الشيء، والثالث رؤية الشيء في المنام.

وجاء في لسان العرب" أن الحليم الذي لا يستخفه عصيان العصاة، ولا يستفزه الغضب عليه، ولكنه جعل لكل شيء مقدارًا فهو مُنتَهِ إليه[1].

مواد تتداخل مع الحلم[2]

الحِلْم والصّبر

الحِلْم هو الإمْهَال بتأخير العقاب المستحقِّ، ولا يصحُّ الحِلْم إلَّا ممَّن يقدر علىٰ العقوبة وما يجرىٰ مجراها، والصَّبر حبس النَّفس لمصادفة المكروه وصَبَر الرَّجل حَبَس نفسه عن إظهار الجزع.

والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه فعلىٰ قدر حلم العبد يكون صبره فالحلم في صفات الرب تعالىٰ أوسع من الصبر[3].

---

(١) التاج واللسان مادة: ح- ل- م.

(٢) الفروق اللغوية ت: أبو هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ١ / ٢٠٤.

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م. (صـ: ٢٣٦)

الحِلْم والأَنَاة والرِّفق

وأَمَّا الأَنَاة: فهي التَّأَنِّي في الأمور وعدم العجلة، وألَّا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجَّل ويحْكُم علىٰ الشَّيء قبل أن يتأَنَّىٰ فيه وينظر، وأَمَّا الرِّفق: فهو معاملة النَّاس بالرِّفق والهون حتىٰ وإن استحقُّوا ما يستحقُّون مِن العقوبة والنَّكال، فإنَّه يرفُق بهم.

الحِلْم والإمْهَال

كلُّ حلمٍ إمهالٌ، وليس كلُّ إمهالٍ حلمًا، ولا يصح الحلم إلا ممن يقدر علىٰ العقوبة.

الحليم في نظم القرآن الكريم

يوصف الله عَزَّ وجَلَّ بالحِلم، وهي صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ له بالكتاب والسنة، و(الحليم) اسم من أسمائه تعالىٰ.

وَرد لفظ (الحليم) وصفًا للأنبياء، حيث وُصف به سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وذلك في قوله تعالي: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود:٧٥]. أي: غير عجول علىٰ كل من أساء إليه، أَوَّاهٌ كثير التأوّه من الذنوب مُنِيبٌ تائبٌ راجعٌ إلىٰ الله بما يحب ويرضىٰ. وهذه الصفات دالة علىٰ رقة القلب والرأفة والرحمة، فبيَّن أنّ ذلك مما حمله علىٰ المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله علىٰ الاستغفار لأبيه" [1].

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ت: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، للإمام الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت ط: الثالثة – ١٤٠٧ هـ، ٢/ ٤١٢.

ووصف به سيدنا إسحاق، أو إسماعيل - عليه السلام-، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات:١٠١]. و"هذه البشارة انطوت علىٰ ثلاثة أشياء: علىٰ أن الولد ذكر، وأنه يبلغ أَوَان الحلم، وأنه يكون حليمًا. قيل: ما نعَتَ الله الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نَعَتَهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده. ولقد نعت الله به إبراهيم، وأَيّ حلم أعظم من حلمه لمّا عرض عليه أبوه الذبح قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الصافات:١٠٢]، والحادثة شهدت بحلمهما جميعًا" (١).

الحليم من أسماء الله تعالي

الحلم سيد الأخلاق، وقد قيل: كاد الحليم أن يكون نبيًا، والله سبحانه وتعالي حليمٌ لا يَعْجَلُ بالعقوبة، فلا يحبس إنعامه وفضله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه، كما يُبقي البر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره، فضلًا عن أن يدعوه، كما يقيها الناسك الذي يسأله وربما شغلته العبادة عن المسألة(٢).

ولماذا يؤخر ربنا تبارك وتعالي العقوبة؟ لأنه حليمٌ، فلو عجَّل العقاب لكل مذنب حين يقع في الذنب لما كان هناك حلم، ولو أخرَّ ربنا - عز وجل- العقاب، ويريد بعد تأخير العقاب أن يوقع بالإنسان أشد العقاب، فهذا حقد - وحاشا لله-، فالحاقد يمتلئ شعورًا بالغيظ لكنه يؤخر تنفيذ عقابه لسبب أو لآخر، فحينما يُؤخر إنسان العقوبة لضعفه فهو الحاقد، وحينما يُؤخر العقوبة؛ ليجعل خصمه يقع في ذنب أكبر فيوقع به أشد العقاب فهو- أيضًا- حاقد، فهناك حاقدان، أحدهما قوىٰ والآخر

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت / جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ٣/ ٨٤.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: دار الحديث - القاهرة، ٦٧، ٦٨.

ضعيف، هذا بالنسبة للبشر، وبالنسبة لملك الملوك صاحب العزة والرحموت، فتأخير العقاب من قِبَلِه - تبارك وتعالي- فليس له علاقة بهذا المعني إطلاقًا، فلو أنه - سبحانه وتعالي- ألغىٰ العقاب، فهل يسمي حليمًا؟ لا، فماذا يسمي إذًا؟ يسمي عفوًا غفورًا، وإذا أخرَّ العقاب؛ ليعطي هذا الإنسان فرصة ليعود فهذا هو الحلم.

المؤمن العادي الحليم ينطوي علىٰ نفس وديعة، صافية، مسالمة، لا حقد فيها، فكيف بالله رب العالمين تبارك وتعالي؟ الله تبارك وتعالي لا يُبغض العبد، بل يُبغض فعله فقط، ويلعن فعله فقط، ومن ثمَّ فإن اسم الله (الحليم) صفة فعل؛ لأنه سبحانه وتعالي- أخرَّ العقوبة[1].

فكم يرىٰ -سبحانه وتعالي- عصيان العصاة، ولا يسارع للانتقام؛ لأنه الحليم، وفي هذا المعني، يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله -: وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان[2]

والاسم يتضمن صفة كمال، فالحليم يتضمن صفة الحلم: الذي لا يُعَجِّل بالعقوبة سبحانه وتعالىٰ، فإنه يُملي ولا يُمهل؛ لأنه إذا أخذ لم يفلته، فهو يملي للعباد، ويفتح لهم أبواب التوبة والأوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالىٰ، فإنه حليمٌ، وانظروا إلىٰ حلم الله جل في علاه المتدفق علىٰ عباده المؤمنين والكافرين، فحلم الله جل في علاه يتدارك الكافرين قبل أن يتدارك المؤمنين، فما بالكم بحلم الله - تعالي-علىٰ المؤمنين.

---

(١) أسماء الله الحسني(ضمن موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية) د/ محمد راتب النابلسي ٢٦٠- وما بعدها.

(٢) شرح أسماء الله الحسني ابن القيم: ١٥٢

فاصلة اسم الله (الحليم) بين المكي والمدني:

١- يقول الله تعالي: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ [البقرة:٢٢٥ مدنية]

٢- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٣٥]

٣- ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة:٢٦٣]

٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران:١٥٥ مدنية]

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة:١٠١ مدنية]

٦- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤ مكية]

٧- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: ٤١ مكية]

٨- ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [النساء:١٢ مدنية].

٩- قوله تعالىٰ: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج: ٥٩ مكية].

١٠-﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب:٥٠ مدنية].

١١- ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: ١٧ مدنية].

تعقيب:

من خلال العرض السابق يتبين ما يأتي:

- سورة البقرة حظيت بثلاثة مواضع وهم: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ - وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ - وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾، كما ورد تركيب ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ مرتين في آيتي البقرة والمائدة.ورد تركيب بالفتح والكسر ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ - إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ مرة واحدة في البقرة، وبالكسر في آل عمران.
- ورد تركيب ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ مرتين في آيتي الإسراء وفاطر، وفيهما تقدم الحلم علىٰ المغفرة، ورد تركيب ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ مرة واحدة في ثلاث آيات من سور ﴿ النساء-الحج-الأحزاب ﴾.
- ورد تركيب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ في سورة التغابن.
- سبق اسم الله الأعظم في ثماني مرات؛ وذلك لتربية المهابة والإجلال في نفوس العباد لأجل التوبة والاستغفار والرجوع لخالقهم.
- ورد العفو في آيتين تقدمت علىٰ الغفران والحلم في آيتي آل عمران والمائدة وهما مدنيتان ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

المحور الأول: دلالة اقتران المغفرة بالحلم.

جاء هذا التركيب في﴿ الغَفُورٌ الحَلِيمٌ ﴾ أربعة مواضع [١] ختامًا للآيات الكريمات، حيث إن هناك ذنبًا ما يستوجب العقوبة لم يعاقب الله سبحانه وتعالي عليه؛ لأنه حليمٌ علىٰ عباده، لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لصفحه وحلمه، وسنتعرفه كل في مقامه.

في مقام الحلف والأيمان

ففي الموضع الأول: الله تبارك وتعالي لا يُؤاخذ باللغو في الأيمان، ومنهج الإسلام يدعو إلىٰ ضبط النفس وعدم التسرع في الحلف حتي لا يقع في المحظور، وردت الآية الكريمة علىٰ طريق الاستئناف البياني؛ لأن الآية السابقة ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ [سورة البقرة:٢٢٤]."أفادت النهي عن التسرع بالحلف، ومعني الآية: أنّ الرجل كان يحلف علىٰ بعض الخيرات، من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلىٰ أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يمينىٰ، فيترك البرّ إرادة البرّ في يمينه، فقيل لهم: وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أىٰ حاجزاً لما حلفتم عليه" [٢].

ومجيء النهي في الآية جعل النفوس متطلعة لمعرفة حكم اليمين المقابلة لها، والتي تجرىٰ عادة علىٰ ألسنة الناس، ما شأنها؟ فكان الاستئناف البياني الذي ذكر.

والقرآن الكريم سياق محكم ممتد، يجمعه رباط وثيق، يمتد من أول سورة لآخر سورة، كيف ذلك؟ عند تبصر السياق ووضع الآيات بجوار بعضها تجد أن هذه الآية

---

(١) المواضع بالترتيب:البقرة:٢٢٥، ٢٣٥، آل عمران:١٥٥، المائدة:١٠٢.

(٢) الكشاف: ١/ ٢٦٧.

الكريمة لها صلة وثيقة بآية المائدة والحديث عن الكفارات وبيان تفصيلها ؛ لأن الأيمان هناك معقودة بالقصد والنية، اقرأ قوله تعالي: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ [سورة المائدة:٨٩]، فهي ترتد إلىٰ آية البقرة؛ لأن القرآن الكريم نسيج وحده، يأتي مفصلًا في موضع، ومجملًا في آخر، يرتد أوله علىٰ آخره، وآخره علىٰ أوله، والتشابه قائم واضح في المطلعين، وكذلك الجملة الثانية تقابلها في آية البقرة ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [سورة البقرة:٢٢٥] ضع في مقابلها هنا ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾يتضح المراد.

والمؤاخذة مفاعلة من الأخذ بمعني العدَّ والمحاسبة، أو المعاتبة أو المعاقبة، وهي للمبالغة في الأخذ؛ إذ ليس فيه حصول الفعل من الجانبين، ولذا ورد بصيغة النفي وكأنه تمهيد لحلم المولي تبارك وتعالي.

ومن مظاهر حلمه وعفوه أن المؤاخذة هنا علىٰ معنيين: أحدهما: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ﴾ لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن، والثاني:﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ﴾أي: لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه.(١)

وإيثار التعبير بـ (اللغو) دون الباطل أو الفاسد؛ لأن كل منهما قد يكون مرادًا، أمّا اللغو فهو كلام بشيء لم تُرده.

والوصل بين الجملتين من التوسط بين الكمالين، وإخراج المشهد في نسق متزامن يوضح قيمة الستر وعدم المؤاخذة في أمر ما، وتأكيد العقوبة مع عدم المعاجلة

---

(١) الكشاف:١/ ٢٦٨، ٦٧٣.

في المعاتبة أو المعاقبة، وهذا هو منهج القرآن الكريم يبين للإنسان ما يصلحه وما تستقيم به حياته.

والعطف جاء بطريق (لكن) فقصر المؤاخذة علىٰ كسب القلب ونفاها عن اليمين اللغو، قصر صفة علىٰ موصوف، قصرًا إضافيًا؛ لأن المنفي فيه أمر محدد، وهو المؤاخذة في اليمين اللغو، وأفاد القصر تأكيد المعني المراد.

"واختلف الفقهاء في قوله:﴿ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾فعند أبىٰ حنيفة وأصحابه هو أن يحلف علىٰ الشيء يظنه علىٰ ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه. وعند الشافعي: هو قول العرب: لا والله، وبلىٰ والله، بما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف. ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك، ولعله قال: لا والله ألف مرة، فكسب القلب شيء إرادي يتحكم الإنسان، وبه يتحدد مصيره، وكذلك العقد علىٰ الأيمان من كسب الإنسان وبكامل إرادته وتحت سيطرته"(١).

التحليل البلاغي للفاصلة

جاء تعقيب(٢) الآية الكريمة باسمين من أسمائه تعالي ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وهما صفتان تدلان علىٰ توسعة الله علىٰ عباده حيث لم يؤاخذهم باللغو في أيمانهم، وإشعار بالغفران والحلم عن من أوعده تعالي بالمؤاخذة، واطماع في سعة رحمته"(٣).

---

(١) تفسير الرازي ت: أبو عبد الله الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط: الثالثة – ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ٦/ ٤٢٦، وما بعدها.

(٢) المراد بالتعقيب علىٰ الآيات: ذلكم الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها، تذيل به الآية زيادة في البيان، ومحافظة علىٰ وحدة الايقاع.

(٣) البحر المحيط في التفسير ت: أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ط: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ٢/ ٤٤٥.

وذكر المسند إليه(الله) بالعلمية؛ لإعظام شأنه في النفوس ولتستحضر عظيم جلاله وكبرياءه.

والجملة من التذييل[١] المؤكد لمطلع الآية الكريمة، وفيه بيان بعدم المؤاخذة باللغو في الأيمان، وعدم التسرع في العقوبة، وهو – أيضًا- من اللف والنشر المرتب، فالمغفرة للغو اليمين، والحلم لكسب القلوب، ومجيئهما علىٰ صيغة المبالغة لستر الذنوب، وإسقاط العقوبة، وعدم التعجيل بالأخذ والمعاقبة في اليمين الغموس[٢].

كما أن مجيء المسند (غَفُورٌ حَلِيمٌ) مجردًا من التعريف؛ ليفيد غفرانًا وتوبة، وعدم معاجلة بالعقوبة؛ لأنه - تبارك وتعالي- حليم يصفح عن قدرة وسيطرة، ومجيئها في ثوب الاسمية؛ لإفادة الثبوت والدوام المطلق لهاتين الصفتين الجليلتين.

في مقام التعريض بخطبة المعتدة

وفي الموضع الثاني: يقول الله تعالي: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ

---

(١) التذييل: أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقق ما قبلها، وتلك الزيادة علىٰ ضربين: ضرب لا يزيد عن المعني الأول وإنما يؤكده ويحققه، وضرب يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ؛ ليشتهر المعني لكثرة دورانه علىٰ الألسنة" بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تح د حفني شرف، دار نهضة مصر، ١٥٥.

(٢) يراجع: تفسير الجلالين ت: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الحديث – القاهرة، ١/ ٤٨، وتفسير ابن عرفة: ٢/ ٦٥٠.

ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٣٥].

سياق الآيات يدور حول أحكام متعلقة بالعدة من طلاق أو وفاة، فلا جناح علىٰ المؤمنين في التعريض بخطبة النساء، أو الإضمار في القلوب، أو عقد العزم علىٰ النكاح قبل انتهاء العدة، والآيات مرتبطة بمقاصد السورة في بيان أحكام الشريعة المتعلقة بالمرأة وتحقيق الراحة والاستقرار والهداية، وهذا ما كشفت عنه سورة البقرة :﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢]، ولتكتمل بها صورة الإسلام وهديه، عقيدة وشريعة، فإن السورة سِنام القرآن"[(١)].

سياق الآية متشابك ومتداخل يكشف عن أغوار النفس البشرية، والإحاطة بأسرارها المكنونة، وصدق ربنا عز في علاه إذ يقول في: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الملك:١٤].

ومن تجليات حلمه وإمهاله لعباده، بدأ بنفي الجناح والتعريض بالخطبة﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴾وهو استبشار وتفاؤل في مطلع الآية الكريمة حيث بدأت بالجملة الاسمية مكونة من (لا) التي تفيد توكيد النفي، ومتضمنة معني (من) الاستغراقية، وهي نظير"(إن) في توكيد الإيجاب"[(٢)]، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام، فهي

---

(١) منهج البحث البياني القرآني عن المعني في سياق السورة د / محمود توفيق سعد، مطبعة الإخوة الأشقاء– مصر، ١٣٧.

(٢) شرح التصريح علىٰ التوضيح ت: خالد بن عبد الله الجرجاويّ المعروف بالوقاد (ت: ٩٠٥هـ) دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان، ط: الأولىٰ ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م، ١/ ٤٢٥، حاشية الصبان علىٰ شرح الأشمونىٰ لألفية = ابن مالك، ت: أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت: ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط: الأولىٰ ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ٢/ ٣

أقوي وأثبت من الجملة الفعلية ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة البقرة:١٩٨]، وغير ذلك من السياقات المختلفة.

ومن جهة أخرىٰ بقاء الجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام يستعمل في المواطن المهمة علىٰ العموم، كأمور العبادات، وتنظيم شؤون الأسرة كما هو واضح هنا، وهذا بخلاف الجملة الفعلية التي تستعمل في أمور الحياة وما هو أقل أهمية علىٰ العموم.

وقوله تعالي: ﴿ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ تعريض فيه إيماء وتلويح دون كشف، وهو دون التصريح، وفائدته " حتي تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه"[(١)]، ومفاد الإباحة بالتعريض كشف خبايا النفس البشرية عند الرجل والمرأة، واختيار الأنسب بعد انتهاء العدة، " ويبدو فيه قصد الإخفاء وعدم الإفصاح؛ إذ يحرم أن يصرح بالخطبة لمعتدة من وفاة باتفاق المفسرين والفقهاء"[(٢)]، وهذا يكشف عن سماحة الإسلام والمحافظة علىٰ حفظ حقوق المرأة، ومراعاة حالتها النفسية في مثل هذه المواقف.

"والعبارة التعريضية – في دلالتها علىٰ المعني التعريضي- يَعرِض لها الخفاء علىٰ نحو ما، بحيث يُعد الخفاء، خاصية تميزها، ما دام التعريض يُضاد التصريح في جوهره وينافيه، وإذا كان الخفاء قسمة مشتركة بين الأساليب التعريضية دون استثناء، فإنه في درجته وفي مداه متفاوت، بحيث يخفَ حينًا فيشِّف عن المعني، حتي يوشك أن

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٢.

(٢) التعريض في القرآن الكريم د / إبراهيم محمد عبد الله الخولي (رحمه الله وطيب ثراه) دار البصائر، ط١ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، صـ:١٨

يبوح به، ويشتد حينًا، حتي يكاد أن يحيل الكلام – من حيث معناه التعريضي- إلىٰ لغُز أو أُحَجِيَّة، ويقتضينا في فهمه ما يقتضيناه فك المعمَّي سواء بسواء، والآية وجدناه ناطقة بالتفاوت في خفاء دلالتها علىٰ التعريض بالخطبة علىٰ نحو بين، فمثلًا لو قارنا بين هذه العبارات الثلاث:"إني أريد أن أتزوج- إني إن تزوجت أحسنت إلىٰ امرأتي- إنِّي فيك لراغب"[1]، لرأينا أنها تترتب تنازليا من حيث درجة الخفاء فيها؛ فليس من شك أن قولهم:"إني فيك لراغب" أقل خفاء من سابقيه، ولا شك كذلك أن قوله: "إنِّي إن تزوجت أحسنت إلىٰ امرأتي" أقل خفاء من سابقه، وأغمض قليلًا من لاحقه، فإذا قارنا هذه مجتمعة بمثل قوله:"لاتسبقيني بنفسك" بدا الأخير وكأنه تصريح بالقياس إليه، ومن هنا كرهه مجاهد فيما روي عن الليث.

أمّا حين نتأمل قوله:"إن لي حاجة" أو"أبشري" فإن القضية تنعكس تمامًا، وسوف نجد أنفسنا أمام ما هو أخفي من كل ما سبق، وقد جعل القرآن التعريض وسطًا بين طرفين، نتبينهما من الآية الكريمة، احتمالات ثلاث أمام من يريد التزوج من المتوفي عنها زوجها في العدة:

أولها: أن يصرح لها برغبته في الزواج منها، وهو حرام ﴿ لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

وثانيها: أن يُعرِّض بالخطبة ولا يُصَرِّح، وهو رخصة رفع الله الجناح فيها.

وثالثها: أن يكتم رغبته في نفسه ويخفيها، فلا يُصرِّح ولا يُعرِّض﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، ورفع الجناح هنا أولىٰ من سابقه، والتعريض إذًا حد بين الكتمان

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ت: ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،ط: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م:٥/ ٩٨، ٩٩.

والتصريح، والتصريح وضوح، والكتمان صمت كامل، والتعريض بينهما: وضوح في خفاء، وكذلك كان، وقد ذكرنا من عباراته ما تبين منه هذه المراتب "[1].

والعطف في قوله: ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وهي أدق وأخفي من التعريض فأخفي في نفسه ما يريد أن يبوح به، وإشعار بالتسوية بينه وبين ما في النفس من الجواز،أي: هما سواء في رفع الحرج عن صاحبهما.

وأُخر الإكنان عن التعريض؛ لأنه أفضل وأرقي ما للمعتدة من حرمة مع التنبيه علىٰ أنه نادر الوقوع،" لأن شهوة النفس إذا حصلت في باب النكاح لا يكاد يخلو ذلك المشتهي من العزم والتمني، فلما كان دفع هذا الخاطر كالشيء الشاق أسقط تعالىٰ عنه هذا الحرج وأباح له ذلك"[2].

وبتأخير الإكنان كان تمهيدًا ووطاء لجملة التعليل﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ وهو تفصيل بعد إجمال من إباحة التعريض وتحريم التصريح، فهو لا محالة عقد القلب علىٰ ذكر خبرها في المستقبل.

والاستدراك بجملة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾والمستدرك محذوف لدلالة ﴿ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾)، تقديره: فاذكروهن، وفيه لفت وتنبيه وتحذير من الانزلاق في تلك المخاطر، والتقييد بـ (سِرًّا)؛ لبيان شدة التحذير وسد الباب عن المواعدة ولو سرًا " فإذا كان النهي عن المواعدة سرًا علم النهي عن المواعدة جهرًا

---

(١) التعريض في القرآن الكريم: ٨٩-٩٠.

(٢) تفسير الرازي: ٦/ ٤٧١

بالأولي" [١]، وبعيد عن خلاف العلماء حول معني (سِرًّا)، وتوجيه الاستثناء في الآية[٢]، والاستثناء في الآية متصل[٣]؛ لأن المستثنىٰ من جنس المستثنىٰ منه، حيث إن كلاهما قول الأول منهي منه، والثاني مباح، والمراد النهي عن كل مواعدة سرية من شأنها الإفصاح بذكر النكاح؛ لأنه مما يُسَرُ.

والاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ ﴾ قائمٌ علىٰ تحرىٰ الدقة وأخذ الحذر في الحديث معهن، فإن كان من كلام فلا بد أن يخلو من إفحاش في القول، وليكن قولًا معروفًا، والاستثناء بطريق النفي والاستثناء قصر حقيقي تحقيقي،

---

(١) التحرير والتنوير ت: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ: ٢/ ٤٥٤.

(٢) يراجع: جامع البيان للطبري: ٥/ ١١٣، الكشاف: ١/ ٢٥٧، روح المعاني ت: شهاب الدين محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤١٥هـ، ١/ ٥٤٤.

(٣) هذا ما أكده العلامة الزمخشري رافضًا حمل الاستثناء علىٰ الانقطاع، بل نص علىٰ عدم جوازه، فجعله استثناء متصلا، وجعل ذلك من وجهين " فإن قلت: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بلا تواعدوهنّ، أىٰ لا تواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة. أىٰ لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا، أىٰ لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض. ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من (سِرًّا) لأدائه إلىٰ قولك لا تواعدوهنّ إلا التعريض. وقيل =معناه: لا تواعدوهن جماعا، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت، يريد ما يجرىٰ بينهما تحت اللحاف. إلا أن تقولوا قولا معروفا يعنىٰ من غير رفث ولا إفحاش في الكلام. وقيل لا تواعدوهن سراً: أىٰ في السر علىٰ أنّ المواعدة في السرّ عبارة عن المواعدة بما يستهجن، لأن مسارّتهنّ في الغالب بما يستحيا من المجاهرة به يراجع: الكشاف١/ ٢٨٤.

حيث قصرت المواعدة علىٰ قول المعروف مبالغة في التأكيد والتضييق والتحديد ؛ مراعاة لشعورها، وحفاظًا علىٰ حقوقها.

ويلحظ أن الاستثناء لا يأتي إلا في المعني الذي يحتاج إلىٰ فضل تقرير وتأكيد، وفي المقامات العنيفة المستوغرة جهيرة النبرة قوية الوقع"[1].

ثم إن الحبل ممتد ومتسع جدًا، فيأتي النهي عن المؤاخذة في العدة ﴿ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾ وإيثار العزم هنا؛ للمبالغة والنهي عن الإقدام علىٰ هذا الأمر ووقوع العقد في وقت العدة، وهو تمهيد لختام الآية ﴿ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ ؛ لأن العزم أمر قلبي، فإذا نهاه عن العزم وهو أمر قلبي فمن باب أولي يكون عن الفعل أنهي.

كل ذلك كشف لعمق النفس البشرية ومدىٰ ضعفها وتعجلها، فكان لزامًا من التنبيه والتشديد علىٰ هذا الأمر مراعاة لحفظ الأنساب، ومراعاة حدود الله وبيان شرعه.

تأمل قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾ جعل انتهاء العدة كتابًا أو فرضًا، أي: حتي يبلغ هذا التكليف نهايته، والكتابة آكد وأثبت وأقوي في الحجة والبرهان؛ ليفيد التأني والتريث فكل شيء عند المولي تبارك وتعالي مقدر وله وقت معلوم.

ويأتي ختام الآية مرتدًا إلىٰ مطلع الآية الكريمة عن طريق الاستئناف تمهيدًا للختام ﴿ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ فترتد إلىٰ ﴿ أَوۡ

(١) يراجع: دلالات التراكيب د محمد أبو موسي ط٢ مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، صـ ١٠٤علم المعاني د/ صباح دراز مطبعة التركي طنطا-١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ٢/ ٨٩.

﴿ أَكَنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ لأنه أعلم بأسرارها وما يدور في خفاياها، ثم التأكيد علىٰ العلم – أيضًا– زيادة في أخذ الحيطة والحذر والتثبت.

والافتتاح بفعل الأمر (اعْلَمُوا) للتأكيد والاهتمام بالخبر، وفيه زيادة وتهديد وتحذير، كما أن وفي اجتماع (العلم والتحذير) "تأكيد علىٰ التنفير من ذلك والعقوبة من المؤاخذة هنا علىٰ ما في النفس والإصرار عليه " (١).

وفي التنبيه بصيغة الأمر تنزيلًا للمخاطب منزلة من لا يعلم، وذلك نظرًا للتنبيه عليهم وأخذ الحذر في ضبط النفس من الوقوع فيما لا تحمد عقباه مما بترتب عليه ضياع الحقوق وانتشار المفاسد.

وفي تكرار لفظ الجلالة (اللهَ) يتناسب مع حلمه وعدم معاجلتهم بالعقوبة وإشعار ببث الرهبة والخوف وإغلاف منافذ شر تفتح علىٰ الناس في مثل هذه المواقف، و" لفظ الجلالة" اسم للرب المعبود المحمود الدال علىٰ الذات العظيمة الجامعة لصفات الإلهية والربوبية فهو اسم له وحده لا يتعلق به أحد سواه، ولا يُطلق علىٰ غيره ولا يدّعيه أحد من خلقه.

ذكر الزمن مع انتهاء العدة

صدق رب العزة تبارك وتعالي أن الإنسان خلق من عجل، فهو دائمًا يريد كل شيء في أقرب وقت وسرعة لا حدود لها، وتلك طبيعة النفس البشرية، والله تبارك وتعالي أدري بصنعته ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الملك: ١٤].والله تبارك وتعالي يَحْلُم علىٰ عباده ويعذرهم ويفتح لهم أبواب الأمل والرجاء، ولا يؤاخذهم بما كسبوا، بل يغفر ويرحم ويصفح، كما قال تعالي: ﴿

(١) تفسير ابن عرفه: ٢/ ٦٨٢

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ ﴾ [سورة الكهف:٥٨].

عند تبصر السياق في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ تجد أن الذنوب لها علاقة بالزمن والسرعة التي كانت تنتاب القوم، وحتي للاستغراق في الزمن المستقبل، وفي هذا عظة للمؤمن أن يتحلي بصفة الحلم وعدم العجلة والسرعة والتأني في كل شيء، فلو أنهم صبروا ما وقعوا فيما وقعوا فيه، فكان الختم بصفة (الحلم) دعوة للمؤمنين للتخلق بتلك الصفة العظيمة.

التحليل البلاغي للفاصلة

ربُّ العزة تبارك وتعالي لمَّا هددّ المخاطبين بأنه مطلِّع علىٰ ما في أنفسهم، وحذّرهم منه، أردف ذلك بذكر صفتين عظيمتين؛ ليزيل عنهم روع التهديد والوعيد، والتحذير من عقابه، فيكون قلبه بين الخوف والرجاء.

ختمت الآية الكريمة بجانب من التهديد والوعيد عند المخالفة، وبالوعد في النهاية، فكان التهديد ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ [سورة البقرة:٢٣٥]، لأن ربَّ العزة تبارك وتعالي يعلم ما يدور في تفكير الإنسان ويعلم السر وأخفي من السر، فيُذكرهم بالحذر في كل شيء، ولما كان جلَّ شأنه عالمًا بضعف النفس البشرية آنسها بما يزيل خوفها، فبعث فيها الأمل وفتح لها باب الرجاء، وعدم المعاجلة بالمؤاخذة والعقوبة،" ثم إنَّه تعالىٰ ختم الآية بالتهديد فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ وهو تنبيه علىٰ أنه تعالىٰ

لما كان عالمًا بالسرِّ والعلانية، وجب الحذر في كل ما يفعله الإنسان في السر والعلانية ثم ذكر بعد الوعيد الوعد، فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

كما جاء التعقيب بهاتين الصفتين الجليلتين مبالغة في الغفران والحلم؛ ليقوي رجاء المؤمن في إحسان الله تعالي، وطمعه في غفرانه وحلمه، إن زل وهفا، وهو تذييل يجري مجري المثل، لما فيه من دعوة للقدوم علىٰ الله والتوبة والاقبال عليه سبحانه وتعالي، ومع ذلك عدم معاجلتهم بالعقوبة؛ ليرجعوا ويتوبوا، ومجيء التعقيب مستأنفًا تعليل لما سبقها من عدم التعريض بالخطبة مع قول المعروف، وعدم المواعدة بما يخالف شرعه ومنهجه.

كما أن إيثار التعبير بـ (إن واسمية الجملة) لإفادة الثبوت والدوام، وأن الله تبارك مطلع علىٰ ما في ضمائركم، فاحذروا !

وكان الختم بصفتي المغفرة والحلم دعوة للمؤمنين للتخلق بهاتين الصفتين، وعدم العجلة والسرعة فلا بد من التأني في كل شيء، كما أُوثر تقديم المغفرة علىٰ (الحلم) حيث المبالغة في الغفران والستر؛ لأن الله تبارك وتعالي فعَّال لما يريد، كما أردف (المغفرة) بـ (الحلم)؛ لبيان فضله تبارك وتعالي وسعة حلمه حيث يتفضل علىٰ خلقه بستر ذنوبهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

(١) تفسير الرازي:٦ / ٤٧٣

تعقيب على الآيتين:

يلحظ تشابه الآية هنا بالموضع الأول في مقام الأيمان، من عدة أمور مهمة:

أولًا: صُدرت الآية الكريمة هنا بنفي الجناح، وهناك بنفي المؤاخذة، وهما تمهيد لختام الآيتين بالمغفرة والحلم.

ثانيًا: بناء الآيتين علىٰ الاستدراك، حيث جاءت كل منهما بعد نفي؛ لتنبيه لكل من يتأتىٰ منه الخطاب أن يكون علىٰ حذر وترقب.

ثالثًا: ورودهما في سورة البقرة وهي مدنية حيث إبراز بعض القيم التي تعالج الانحراف في السلوك، ومعالجة ضعف النفس البشرية، وتوضيح الشرائع وتمامها في بناء المجتمع المسلم وما يشتمل عليه من الرحمة والتخفيف وحفظ الحقوق، وفي ذلك إشارة إلىٰ تربية هذه الأمة وتهيئتها لتلقي رسالة السماء، والاستجابة لأوامر الله جلَّ في علاه.

رابعًا: كثرة التوكيد في الآية الثانية (والتي تضمنت تحذيرات عدة) مناسب لمطلع الآية في النهي وتوخي الحذر والترقب، والمحافظة علىٰ حقوق المرأة ومراعاة شعورها، في مثل هذه الأحوال.

في مقام التأديب

ورد اسم الله (الحليم) في معرض التأديب وتثبيت المؤمنين في مواجهة أهل الشرك، والتخلص من هوي الشيطان وغوايته، والنهي عن الفضول فيما لا ينفع المؤمن، والسؤال عما يسوء.

الموضع الأول: قال تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٥].

سياق الآية يكشف عن سبب هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وأن ناسًا من أصحاب رسول الله- ﷺ - تولوا عن القتال وعن نبيّ الله يومئذ، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه، " ثم اختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين عُنوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها كلُّ من ولَّىٰ الدُّبُرَ عن المشركين بـ (أحد)، حدثنا عاصم بن كليب، عن أبيه قال: خطب عمر يوم الجمعة فقرأ"آل عمران"، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ ، قال: لما كان يوم أحد هزمناهم، ففررتُ حتىٰ صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أرْوَىٰ، والناس يقولون:"قُتل محمد"! فقلت: لا أجد أحدًا يقول:"قُتل محمد"، إلا قتلته! حتىٰ اجتمعنا علىٰ الجبل، فنزلت:"إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ"، الآية كلها، وقال آخرون: بل عني بذلك خاصٌّ ممن ولَّىٰ الدبر يومئذ، قالوا: وإنما عنىٰ به الذين لحقوا بالمدينة منهم دون غيرهم، وقيل: بل نزل ذلك في رجال بأعيانهم معروفين."[1] فجاءت الآية الكريمة تُبين سبب الهزيمة،

(١) جامع البيان للطبري: ٧/ ٣٢٧.

وفي الوقت نفسه العفو الشامل من قِبل الله تعالي، وإمهالهم مع عدم معاجلتهم بالعقوبة عن حلم وغفران لا عن طيش وانتقام.

وفي الآية الكريمة استئناف لبيان سبب الهزيمة الخفي، والتأكيد في مفتتح الآية يؤكد عظم جرمهم، واتباعهم الشيطان، ومخالفتهم لأمر نبيهم، وهو مناسب للختام، حيث تتضافر المؤكدات في المطلع والمقصد.

والمقام هنا ذكر أحداث وأشخاص ومكان، فالحدث هزيمة المسلمين يوم أحد ﴿ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ (جمع المسلمين وجمع المشركين)، و(الجمع) المقصود في آية القمر ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [سورة القمر:٤٥].جمع المشركين وهزيمتهم.

أمَّا الأشخاص فأناس ﴿ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ بمعنىٰ:أزلهم فجعلهم زالين، والزلل مستعار لفعل الخطيئة، والسين والتاء فيه للتأكيد. وليس الطلب؛ لأن المقصود لومهم علىٰ وقوعهم في معصية الرسول- ﷺ- فهو زلل واقع، والمكان (أحد) شاهد بعينه علىٰ درس قاسٍ للأمة المسلمة حين استزلهم الشيطان، وزَين لهم سوء فعالهم، حين أطاعوا الشيطان، فأنساهم مهمتهم، ونسوا الخصومة القديمة منذ بدء الخليقة.

واختلف العلماء في معني ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ ﴾ فمنهم من قال: طلب منهم الزلل ودعاهم إليه بِبَعْضِ ما كَسَبُوا من ذنوبهم، ومعناه: إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبًا، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتىٰ تولوا، وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم

إليه بذنوب قد تقدمت لهم، لأنّ الذنب يجرّ إلىٰ الذنب، كما أن الطاعة تجر إلىٰ الطاعة وتكون لطفا فيها. وقيل:استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة(١).

"قيل بمعني (مَا كَسَبُوا) والبعض زائدة كما أن (عن) زائدة، والأشبه أن يقال هذه العقوبة ليست بكل ما كسبوا فإنكم تستحقون به عقوبة أزيد منها، لكنه تعالي مَنَّ عليكم بفضله وعفي عن كثير وأخذ ببعض ما كسبتم، يبين ذلك قوله تعالي: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [سورة فاطر:٤٥]، فالتشبيه بين الآيتين بحسب المفهوم لا في زيادة اللفظ"(٢).

والباء في قوله: ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ قد تكون للسببية أو الإلصاق، فعلي السببية" أُريد ببعض ما كسبوا مفارقة موقفهم، وعصيان أمر الرسول- ﷺ -، والتنازع، والتعجيل إلىٰ الغنيمة، والمعنىٰ: أن ما أصابهم كان من آثار الشيطان، رماهم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم، وعلىٰ الإلصاق أريد به أنه كان قد صدرت عنهم جنايات، فبواسطة تلك الجنايات قدر الشيطان علىٰ استزلالهم حيث ذكرهم الشيطان ذنوبًا كانت لهم، فكرهوا لقاء الله إلا علىٰ حال، فأخَّروا الجهاد حتىٰ يصلحوا أمرهم ويجاهدوا علىٰ حال مرضية، فهم لم يَتَولوا في قتالهم علىٰ جهة المعاندة، ولا علىٰ

---

(١) الكشاف:١/ ٤٣٠.

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي (ت ٧٤٣هـ) دراسة وتحقيق للباحث حسن بن أحمد بلغيث الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قسم التفسير ١٤١٥هـ-١٤١٦هـ، ٣/ ٣١٤.

الفِرار من الزحف رغبة في الدنيا خاصة، وإنما ذكرهم الشيطان خطايا كانت لهم فكرهوا لقاءَ الله إلا علىٰ حال يرضونها، فلذلك عفا عنهم [1].

وعند تبصر السياق القرآني تجد انسجامًا واضحا بين آي الذكر الحكيم، حيث ذكر هنا ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ وفي آيتي المائدة والشوري ﴿ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة المائدة:١٥].

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الشورى:٣٠].

وفي ختام الآية جملة مستأنفة (وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ)، وقبلها بثلاث آيات ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢]؛ لبيان عفو الله تعالي عنهم، بالإضافة إلىٰ اقتران لام القسم بحرف التحقيق مع ماضوية الفعل، وتكرار لفظ الجلالة ؛ لبث مزيد من الطمأنينة والاستقرار، وتربية المهابة وتثبيت الإيمان في قلوبهم، والثبات في مواجهة المحن والأزمات.

وقوله –تعالي–: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما: حَلُمَ عنهم إذ لم يُعاجلهم بالعقوبة، فيستأصلهم جميعًا وهذا قول ابن جريح وابن زيد. والثاني: غفر لهم الخطيئة ليدل علىٰ أنهم قد أخلصواْ التوبة[2].

---

(١) يراجع: معاني القرآن وإعرابه ت: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ) الناشر: عالم الكتب – بيروت، ط الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ١/ ٤٨٢، تفسير الرازي، والتحرير والتنوير ٤/ ١٤٠–١٤١.

(٢) معاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٨٢

مناسبة الآية للسورة

الآية الكريمة من سورة آل عمران والتي ركزت علىٰ غزوة أحد، وذلك بداية من قول الله تعالي: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٢١-١٢٢].

وركزت كذلك علىٰ مواساة المسلمين بعد الغزوة وأنهم هم الأعلون، فلا ذلة ولا مهانة، يقول الله تعالي: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٣٩]، والمقام مقام مسح علىٰ القلوب وطمأنة لها، وما حدث ليس بدعًا في دنيا الناس، وإنما هو تمحيص وتثبيت لراسخي الإيمان من غيرهم، تدبر قوله تعالي: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٠-١٤١]، وعدم الضعف والاستكانة أول الطريق للثبات والفلاح، يقول الله تعالي: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٦].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢].

وذكرت الجانب المقابل لغزوة أحد، فذكر انتصار موقعة الحق علىٰ الباطل يوم(بدر) تمهيدًا لذكر موقعة أحد، وذلك في قوله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٢٣]؛ ليتبين المسلم طريق الثبات علىٰ طريق النصر حين يأخذ بالأسباب ويتدرع بلباس الصبر والرباط في سبيل الله وترك الشهوات، والقرآن الكريم سياق واحد يذكر أسباب النصر والثبات والتحلي بالصبر مع قوة التحمل، والجهة المقابلة لها من الضعف والهوان والتخلي عن المنهج الأمثل كما حدث في هزيمة غزوة أحد كما مرَّ في سرد الآيات الماضية، " ومجيء قصة (بدر) في (آل عمران) في سياق ثمرة التوكل الذي هو من مقتضيات الإيمان بالقيومية "[1]، وهذا يرتد إلىٰ مفتتح السورة المباركة [اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ].

وفي ختام السورة تذكير بالصبر والمصابرة والرباط في سبيل الله تعالي، وذلك في قوله تعالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠]، وهو مرتبط تمام الارتباط بالآية هنا، حين التقي الجمعان في تلك الغزوة المباركة، وتسلل الشيطان إليهم ببعض ذنوبهم، وتركهم ما هو واجب عليهم، وبالآيات قبلها في منتصف السورة وبدايتها، كما في قوله تعالي: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ

(١) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم صـ: ٢٧٩.

وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٧]، وفي قوله تعالي: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٢].

وفي قوله تعالي: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٦]، وكل هذا يعكس عدم الصبر والمجاهدة في صدِّ الشيطان وكسر شوكته، كما كان في غزوة بدر الكبرىٰ، فالصبر والثبات هو السبيل للنصر في مواجهة الأعداء.

التحليل البلاغي للفاصلة

جاء تعقيب الآية الكريمة بقوله:[إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ] أي غفور لمن تاب وأناب، "حليمٌ"، يعني أنه ذو أناة لا يعجل علىٰ من عصاه وخالف أمره بالنقمة، فلم يجعل لمن انهزم يوم أحد بعد قتال بدر النار، كما جعل يوم بدر، فهذه رخصة بعد التشديد، والجملةُ تعليلٌ لما قبلها علىٰ سبيل التحقيق، وفي إظهار لفظ الجلالةِ تربيةٌ للمهابة وتأكيدٌ للتعليل" [1].

وجاء التأكيد بـ (إن واسمية الجملة) للثبوت والدوام، وأنها صفاته الحسني التي لا تنقطع عن عباده، واتفق المطلع مع المقصد بالتأكيد للمشاكلة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ

(١) يراجع: جامع البيان للطبري٧/ ٣٢٧، والرازي ٩/ ٣٨٨، وتفسير أبي السعود ت: أبو السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢/ ١٠٣، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ت: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) تح: أسعد محمد الطيب: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز – المملكة العربية السعودية ط: الثالثة – ١٤١٩ هـ، ٣/ ٧٩٨.

مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٥]؛ لبيان جرمهم وتخاذلهم، واستزلال الشيطان لهم.

والفاصلة من التذييل وله" موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنىٰ يزداد به انشراحًا والمقصد اتضاحًا، حتىٰ يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ علىٰ المعنىٰ الواحد توكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد"[1].

وجملة الفاصلة من التذييل الذي يجري مجري المثل، لتأكيد شمول مغفرته وستره لذنوب عباده، مع بيان سعة حلمه وشمول عطفه وكرمه، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

كما يلحظ مجيء جملة الخاتمة تعليلًا لبيان السبب والعلة، لماذا عفا عنهم؟ وهنا يجتمع التذييل والتعليل، والثاني تأكيد كالتذييل تمامًا إذا جاء في آخر الكلام؛ ولأن التذييل يجري مجري المثل، فيرسخ في الوجدان، ويجمل في مواطن الوعظ والإرشاد وتثبيت المؤمنين في مواجهة أهل الشرك والطغيان.

(١) كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر. ت: أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ) تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ، ٣٧٣.

الموضع الثاني في آية المائدة:

يقول الله تعالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ ﴾ [سورة المائدة: ١٠١].

الآية الكريمة تحث علىٰ توجيه النصح للمؤمنين والتزامهم الأدب في السؤال عما لا يأتي منه نفعًا، بل يجلب ضررًا ومفسدة، وقد ذكر العلماء في سبب نزول الآية روايات متعددة منها: عن ابن عباس رضي الله عنهما كان قوم يسألون رسول الله – ﷺ – استهزاء، وفي رواية أخري: عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ – ﷺ – عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أُكْثِرَ عَلَيْهِ غَضِبَ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ» قَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ» فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَىٰ شَيْبَةَ» فَلَمَّا رَأَىٰ عُمَرُ مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ(١).

صُدرت الآية الكريمة بالنداء وفيه طلب الإقبال والحث علىٰ الامتثال، ويكون لأمر ذىٰ بال يَهُمُ المخاطبين فينتبهوا وتتفتح آذانهم لسماع الحق فيستجيبوا، وفي النداء تأديب من المولي تبارك وتعالي لعباده المؤمنين، فإذا كان في النداء تهيئة وتنبيهًا يوقظ النفس ويلفت الذهن، فالنهي كذلك حيث تتلقاه النفس بحس واع وذهن منتبه،

---

(١) صحيح البخاري تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م. (٩٢)، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأي ما يكره، وفي "حديث الحج " "لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم" يراجع: صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ) تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (١٣٣٧) باب فرض الحج مرة في العمر.

والغرض منه النصح والإرشاد وهو نهي للمؤمنين عن سؤال الرسول- ﷺ- عن أمور ليست من الدين، وفيه إرشاد إلىٰ ما يصلحهم ونهيهم عما يسؤوهم، والسؤال عن الأمور الغيبية والخفية المتعلقة بالأعراض، وغير ذلك من الأشياء التي تحتمل أن يكون إظهارها سببًا للمساءة إمَّا بشدة التكاليف وكثرتها، وإمَّا بظهور حقائق تفضح أهلها، فالنداء يتضمن النهي عن الفضول، والاسلام ينهي عن كثرة السؤال فيما لا فائدة فيه، والحديث يتعانق مع الآية الكريمة في النهي عن السؤال عما لا يحتاج إليه المؤمن فيما يسوء بالسائل جوابه.

وطباق السلب في النهي والإيجاب(لَا تَسْأَلُوا - وَإِنْ تَسْأَلُوا) يكشف عن حلم الله تعالي بخلقه وعفوه عنهم، وشمول رحمته بهم، وعدم معاجلتهم بالعقاب، فنهاهم عن العجلة والتسرع في السؤال عما لا يفيد إلىٰ أجل مسمي ووقت معلوم، تأمل قوله تعالي: ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾

"فإن قلت: كيف قال: ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ ثم قال: قَدْ سَأَلَها ولم يقل. قد سأل عنها؟ قلت: الضمير في: (سَأَلَها) ليس براجع إلىٰ أشياء حتىٰ تجب تعديته بـ (عن)، وإنما هو راجع إلىٰ المسألة التي دل عليها (لا تَسْئَلُوا) يعنىٰ قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها أىٰ بمرجوعها أو بسببها كافِرِينَ وذلك أنّ بنىٰ إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا" [1].

والتنكير في (أشياء) يفيد العموم والتعميم مما لا فائدة لكم في السؤال عنها، كما حدث من بعضهم السؤال عن آبائهم أو عن تكاليف لم ينزل بها حكم، أو أمور في

(١) الكشاف ١/ ٦٨٤

علم الغيب، أو السؤال عن حال الآباء في الجنة أم النار، وغير ذلك مما لا طائل من وراءه.

ومجيء جملة الشرط ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ بـ (إنْ) دون (إذا) للشك والندرة، وتأتي في الأمور غير المقطوع بها، وإن بدأت قد لا تطيقونها، فمن باب أولي أن تلتزموا الصمت وتمسكوا ألسنتكم عن الخوض فيها، وهذا تحذير من السؤال عن أشياء يكون من شأن إظهارها حرجٌ للسائلين، أمّا إذا كان السؤال بغرض التفقه أو الحكم فيما خفي من أمر ديني فلا مانع منه.

ويتعانق التكرار﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ - ﴿ إِن تُبْدَ﴾ في توضيح المراد من نهي المؤمنين عن التسرع في السؤال عما لا يجدي نفعًا، بل يُخَلِّفُ أضرارًا جسيمة، وتضعهم موضع شك واختلاط فتن لا يسلم من شرها أحد من المؤمنين.

وجملة ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ صفة لـ ﴿ أَشْيَآءَ ﴾ أي: لا تكثروا مساءلة الرسول- ﷺ - من تكاليف شاقة عليكم أن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا علىٰ السؤال عنها(١).

كما يلحظ هنا وجود الزمن بقوة، تبصر قوله تعالي: ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ ﴾مما يدل علىٰ عجلتهم في كثرة السؤال والمشقة في الفعال.

وأما قوله تعالي: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ فإنه يعني به: عفا الله لكم عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتم عنها رسول الله- ﷺ- الذي كره الله لكم مسألتكم إياه عنها، أن يؤاخذكم بها، أو يعاقبكم عليها، إن عرف منها توبتكم وإنابتكم(٢).

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٤٨، تفسير أبي السعود ٢/ ١٢٩، التحرير والتنوير ٧/ ٦٥.

(٢) جامع البيان للطبري١١/ ١١٤.

التحليل البلاغي للفاصلة

المطلع يطل علىٰ المقصد، حيث بدأ بالنداء وما فيه من رحمة وتلطف وفيه عتاب رقيق لصادقي الإيمان، ولراغبي الهداية، وأعقبه بنهي غرضه التربية لجموع المؤمنين، والنهي عما يسوءهم ويفسد حياتهم.

ولما تقدم ذكر العفو وهو عدم المؤاخذة عما كان من مسألتهم قبل النهي، كان ذلك تمهيدًا للإخبار عن الله تعالي بصفتي المغفرة والحلم تذييلًا مقررًا لعفوه – سبحانه وتعالي– فمن سعة مغفرته وشمول ستره وعظيم حلمه لم يعاقبكم مع أسئلتكم التي بها أغضبت نبيكم– ﷺ–.

ويأتي الختام بـ (المغفرة والحلم)، لأن المغفرة تصح بها عدم مؤاخذتهم، والحلم عدم تعجيل بعقوبتهم، ولم يزد المفسرون عن قولهم:" أن الله لم يعجل بعقوبتهم لأنه حليم"(١).

وجمعت الفاصلة ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أتم المناسبة بين العفو والمغفرة، ولأن العفو يسبق المغفرة جاءت الفاصلة بالمغفرة والآية بالعفو، كما تُبين الفاصلة تأنيس القلوب بالمغفرة تطيبًا لنفوسهم ولحثهم ألا يعودوا لما فعلوا، وفيها" تهديد للمؤمنين علىٰ أن يماثلوا المنافقين وترغيب لهم في الطاعة(٢).

كما أن ذكر (العفو مع المغفرة والحلم) فيه دلالة علىٰ قدرته علىٰ العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر علىٰ ضده، ومن آثار عدم المؤاخذة بالخطأ والنسيان (العفو)، واقتران العفو بالغفران للتوكيد؛ لأنه أعم وأُخرت المغفرة ؛لأنها أخص، فهو سبحانه وتعالي عفوٌ عما لم يؤاخذنا بما نستحقه بذنوبنا، غفور لما يُؤاخذنا به في الدنيا إذا رجعنا وتبنا إليه.

---

(١) يراجع: الطبري ٥/ ٥٢١، تفسير الرازي ٦/ ٤٢٨، ٧/ ٤٣، تفسير أبو السعود١/ ٢٣٣.

(٢) المقتطف من عيون التفاسير مصطفي حسن المنصوري دار السلام ط١ ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ١/ ٣٨٤.

تعقيب على الآيتين:

من خلال عرض الآيتين السابقتين يتبين عدة أمور:

١- الآيتان وردتا في سورتين مدنيتين والتي من شأنها بيان شرائع الإسلام وتوضيح المفاهيم، وبناء مجتمع متماسك يشد بعضه بعضا.

٢- اقترن العفو في الآيتين بجوار(المغفرة والحلم) يدل علىٰ تلازم وترابط، وعموم وخصوص؛ فالعفو أعم والمغفرة أخص.

٣- آية آل عمران جاءت في ثوب الخبرية، وآية المائدة في ثوب الإنشائية، حيث صُدرت بأسلوب النداء وما فيه من المعاتبة الرقيقة وتعليمهم ما ينفعهم، مصحوبًا بالنهي عن كثرة الأسئلة التي لا تفيد، وكلاهما وردا في مقام التأديب، وتثبيت المؤمنين في مواجهة التحديات.

٤- كما تزاحمت في آية آل عمران المؤكدات من بدايتها وحتي نهايتها عن طريق الاستئناف واسمية الجملة، وهذه اللهجة الشديدة الحاسمة - مناسبة لتخاذلهم في مواجهة أهل الشرك والطغيان، فناسب التعنيف كثرة المؤكدات-، مرورًا بجملة العفو المستأنفة بلام القسم وحرف التحقيق وماضوية الفعل؛ للتأكيد علىٰ شمول عفوه، وبيان سعة رحمة الله وفضله، وعظيم كرمه وصفحه.

٥- جملة التذييل في الآيتين جاءت مصدرة باسمين من أسمائه الحسني وصفاته العلا مسبوقة بـ (إن واسمية الجملة) (أَنَّ اللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) ؛ لإفادة ثبوت ودوام المغفرة وستر الذنوب، وعدم المعاجلة بالعقوبة مع الصفح عند المقدرة، وبدون التأكيد في المائدة لما فيه من معاتبة لطيفة، وتهذيب وتأديب للمؤمنين.

٦- ذكر لفظ الجلالة (الله) دون الضمير في الآيتين؛ لتربية المهابة، وإدخال الروع وتربية المهابة في النفوس، ثم بيان محوه وستره وغفرانه لذنوبهم وحلمه جلَّ في علاه وصفحه وعدم مؤاخذتهم بما كسبته أيديهم.

المحور الثاني: دلالة اقتران العلم بالحلم.

في مقام فرض الميراث

جاء التركيب المرتبط بالعلم مع الحلم في ثلاثة مواضع:

يقول الله تعالي: ﴿ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة النساء: ١٢].

السياق الذي أحاط بالسورة من أولها إلىٰ نهايتها قائم علىٰ حفظ الحقوق لأصحابها، وتشريع جديد اختصت به السورة وهو تشريع الميراث، وجاءت الآيات بصورة مفصلة دلالة علىٰ أهميته وعظيم شأنه، حيث ذكرت لكل وارث حقه بشكل مفصل بحيث لا يكون هناك ظلم لأحد، كما ردّت بذلك عادات جاهلية كانت سببًا في هضم حقوق المرأة، وتقليل مكانتها ودورها في المجتمع، فجاء الإسلام وضمن لها حقوقها من الضياع في آيات بينات، وخصصت سورة كاملة باسمهم (النساء).

ومن مقاصد السورة المباركة: تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية علىٰ مستوىٰ الأفراد والمجتمعات، وكذلك تحقيق علم المواريث، وبيان توزيع الأنصبة بينهم بشكل محدد يضمن لكل واحد حقه من الضياع.

ولما كانت الآيات تقرر وتفصل حقوقًا في صور شتي اقتضي ذلك أن تعتمد الآيات في تقرير تلك الحقوق علىٰ أساليب توكيد متنوعة ومتعددة لتثبت لكل وارث حقه في صورة مؤكدة حتي لا تبقي هناك فرصة للتحايل أو التلاعب.

سياق الآية من بين يديها ومن خلفها يتظاهر علىٰ تأكيد حق المرأة في الميراث، وبيانه في كتابه العزيز، وقبل هذه الآية وصية من الله تعالي: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) فالوصية لون من الكلام فيه توجيه وإبلاغ، وتقوم علىٰ إثارة المشاعر لفعل الخير وتجنب الشر، وهي مستخلصة من تجارب الحياة ؛ لينتفع بها من تُلقي إليه ويعمل بمقتضاها ويتجنب الوقوع في الأخطاء، فما بالك بملك الملوك –جل جلاله– هو الذي يوصي، ويحث الناس علىٰ فعلها والوصاية بالأولاد.

جاء تقرير تلك الحقوق في صورتين أحدهما مجملة، والأخرىٰ مفصلة، المجملة في مفتتح الآيات ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ، وقد بدأت بالتأكيد عن طريق لام الاستحقاق للنوعين، إضافة إلىٰ التكرار﴿ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ ، وتكرار كلمة ﴿ نَصِيبٌ ﴾ ؛ وتعاون التوكيد بالبدل في قوله﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾، بعد ﴿ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ ﴾ ؛ لبيان أهمية تلك الحقوق وترسيخها في نفوس المجتمع.

والتأكيد في قوله تعالي: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ [سورة النساء:٧]، للملكية والاستحقاق، إضافة إلىٰ تقديم المسند هنا (للرجال وللنساء)؛ لإثبات وتأكيد هذا النصيب ولإرادة تقوية الحكم والاهتمام بنصيب كل من الفئتين مما يشعر بالاستحقاق الذي تدل عليه اللام وبالعدل الذي يفيده التقسيم، والغرض البلاغي

إيراد حكم شرعي عظيم قلب ذلك المفهوم الخاطئ الذي كان سائدًا من الجاهلية في عدم توريث النساء، فمن أجل تثبيت ذلك في نفوس المتلقين قدم المسند وأخر المسند إليه ؛ لأنه مناط الحكم [١].

والوصية من الله تبارك وتعالي إلىٰ الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، والأمر خطير حيث يرتبط بحقوق وضعها الشرع الحنيف؛ لتقوم بها أسس المحبة، وحفظ الحقوق من الضياع أو التلف، وبتنفيذ هذه الوصايا يسود المجتمع الحب والتعاون وتواصل الأرحام، فجاء اللفظ حاملًا معني الوعظ والإرشاد، كما أن تصدير الأمر بالوصية لما فيها من نفع المأمور واهتمام بالأمر لشدة صلاحه، فالتعبير أبلغ وأدل علىٰ الاهتمام وطلب حصوله بسرعة، وتشمل الوصية من ربِّ العزة تبارك وتعالىٰ رحمة وبرًا وعدلًا، فالله تبارك وتعالىٰ أرحم وأبرأ من الوالدين علىٰ أولادهم.

وهذه الوصاية من رب العزة تبارك وتعالي مِنَّةً وتَفَضُلًا بأن هذا العطاء الذي وصلهم إنما هو وَفْق تشريع إلهي عادل، دون نَصَبٍ أو تعب، فالمال ماله، والأمر أمره والملك ملكه، والمشرع هو لا غيره.

وجاءت بأسلوب المواجهة في تفصيل أحكام التشريع عن طريق الخطاب؛ لأنها أدخل في النفس وألزم في تحقيق الغرض، وهو شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله تعالي: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ فاللام للاستحقاق وهي نظير الاختصاص وفرع منه [٢].

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢٤٧.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ت: ٧٦١هـ) تح: د/ مازن المبارك / محمد علي حمد الله.دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥، ١/ ٢٠٨

وأُعيدت اللام في (وَلِلنِّسَاءِ)" لإيراد حكمهن في الاستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء ؛ للاعتناء بأمرهن والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، والمبالغة في إبطال حكم الجاهليين، وقد كانت هذه الآية أول إعطاء لحق الإرث للنساء في العرب" [1].

وتأتي الآية الكريمة ببيان شافٍ لتوضيح تلك الأنصبة من ربِّ العزة تبارك وتعالي، وبدأت بالجار والمجرور (ولكم) فاللام للملكية والاستحقاق، والخطاب فيه مواجهة حاسمة وتفصيل شرع الله الحكيم، والتنبيه بالخطاب علىٰ أمر ما؛ لإيقاظ النفوس وتحريك المشاعر وتسليط الضوء علىٰ تلك الأنصبة وتوزيعها علىٰ مستحقيها.

وقد كثرت تلك اللام المفيدة للملكية والاستحقاق في مواطن عدة في الآية الكريمة في قوله تعالي:(وَلَكُمْ نِصْفُ - فَلَكُمُ الرُّبُعُ - وَلَهُنَّ الرُّبُعُ - فَلَهُنَّ الثُّمُنُ - فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ) دلالة قاطعة علىٰ اختصاص الوارث المذكور بنصيبه دون زيادة أو نقصان، كما يفاد من حرف (اللام) أن الوراث ملزم بمعرفة حقه وقبوله ؛ إذ لا يجوز له التنازل عن الميراث قبل معرفة حقه.

وأوثر التعبير بالجمل الاسمية في آية المواريث لإفادة الثبوت والدوام وأنها حق أصيل للوراث لا تتبدل ولا تتغير، فهي أحكام وقوانين ثابتة.

كما تقدم الخبر علىٰ المبتدأ في الآية السابقة: ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ - فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ - وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾، وهنا أيضًا ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ - فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ - فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ ﴾، وسر

(١) تفسير أبو السعود: ١/ ٤٨٦، والتحرير والتنوير ٤/ ٢٤٩.

التقديم تخصيص الأنصبة لهؤلاء الورثة لا لغيرهم، فالخبر هنا أهم من المبتدأ ؛ لأن هذه الأنصبة محصورة بهؤلاء الورثة لا بسواهم.

ومجيء آية الميراث علىٰ جملة الشرط بـ (إن) لتأكيد معني الاحتمالية والفرض، حيث تفترض الحالة ولا يجزم بوقوعها لأنها مثال لا يُقاس عليه الواقع وليست حكاية عن واقعة بعينها، وكلها حالات تفترض وقوعها ناسبها (إن) الشرطية، ووضعت لكل احتمال ما يناسبه من حلول، وهذا يؤكد علىٰ بُعد النظر والدراية الفاحصة بمجريات الأحداث، وما يدور في خلجات النفس البشرية الغامضة.

وكذلك كثرة الجمل الشرطية؛ لأجل الإقناع والإبانة وإعطاء كل ذي حق حقه وضبط الأحكام التشريعية المنظمة لشؤون الأسرة والمجتمع الإسلامي والحفاظ عليها من انحرافات ومخالفات تحدث بين الناس في مثل هذه المواقف.

كما جاء جواب الشرط محذوفا في آية المواريث (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)، وذلك في قوله تعالي:(إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ)، والجواب: فلكم نصف ما ترك، وقوله تعالي: (إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ)، والجواب (وَلَهُنَّ الرُّبُعُ)؛ وذلك لترقب النفس معرفة فعل الشرط، والمستحق لذلك النصيب وتنبيه المخاطب علىٰ الأهم، وتسليط النظر إليه.

كما قُدم المسند (فَهُمْ) علىٰ المسند إليه (شُرَكَاءُ) في قوله تعالي (فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ) ؛ لأن المشرع أراد إبراز أهمية المخاطبين وتخصيصهم بأنهم شركاء في الثلث؛ لئلا ينفرد بهم واحد دون آخر.

وفي تقديم الوصية علىٰ الدين ذكر القرطبي خمسة وجوه،" الأول: تقدمت الوصية في اللفظ ولم يقصد ترتيبهما في أنفسهما. الثاني: لما كانت الوصية أقل لزوما من الدين قدمها اهتمامًا بها، الثالث: قدمها لكثرة وجودها ووقوعها، الرابع: إنما

قدمت الوصية إذ هي حظ مساكين وضعفاء، وأُخر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال. جواب الخامس: لما كانت الوصية ينشئها من قبل نفسه قدمها، والدين ثابت مؤدىٰ ذكره أو لم يذكره"[1].

كما تكرر لفظ الوصية ثلاث مرات في هذه الآية الكريمة (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ- يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ- وَصِيَّةً مِنَ اللهِ)، وفي الآية قبلها كذلك (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ-مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) وذلك للإشعار بأهمية الوصية وتنبيه الناس وحثهم علىٰ تنفيذها؛ لأنها حق مساكين وضعفاء.

التحليل البلاغي للفاصلة

لما كان الحديث في الآية عن ما يفعله الموروث في مضارته بورثته في وصيته ودينه، ناسب ذلك التذييل بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾، أي: عليم بمن جار أو عدل في وصيته، حليم علىٰ الجائر لا يعاجله بالعقوبة[2].

وفي اقتران اسم الله (العليم) بـ (الحليم) إشارة إلىٰ إحاطته وعلمه بجميع خلقه، وفي تقديم علىٰ (الحلم) فلأن الحلم لا يكون إلا بعد العلم، ورسوخ العلم سبب لوجود الحلم، وهو اتساع الصدر لمساويء الخلق ومدانىٰء أخلاقهم، يقول الإمام ابن القيم في نونيته:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان

وكذاك يعلم ما يكون غدا وما ... قد كان والموجود في ذا الآن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت: ٦٧١هـ) تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ٥/ ٧٤.

(٢) البحر المحيط ٣/ ١٩٩

وكـــذاك أمـــر لـــم يكـــن لـــو كـــان كيـــف يكـــون ذا إمكـــان[١]

والعليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء علىٰ وزن فعيل للمبالغة في وصفه للعلم[٢]. وعلم الله تعالىٰ واسع يسع كل أفعال الخلق وحركاتهم وسكناتهم، وعلم الله غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه، وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها[٣].

وفي إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة[٤]، كما جاءت الفاصلة بذكر المسند إليه زيادة في التقرير والايضاح وتأكيد مضمون الجملة بعد قضايا متشعبة في أمور الميراث.

"وقوله: (وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) تذييل، وذكر وصف العلم والحلم هنا لمناسبة أن الأحكام المتقدمة إبطال لكثير من أحكام الجاهلية، وقد كانوا شرعوا مواريثهم تشريعًا مثاره الجهل والقساوة. فإن حرمان البنت والأخ للأم من الإرث جهل بأن صلة النسبة من جانب الأم مماثلة لصلة نسبة جانب الأب. فهذا ونحوه جهل، وحرمانهم الصغار من الميراث قساوة منهم"[٥].

---

(١) نونية الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)،مكتبة ابن تيمية، القاهرة ط: الثانية، ١٤١٧هـ، ٢٠٤.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: ١٣٥.

(٣) المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسني وصفاته العلا للإمام شمس الدين القرطبي ت ٦٧١هـ، تح: الشحات أحمد الطحان. مكتبة فياض، ط١ ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ١/ ٨٧.

(٤) تفسير أبي السعود:١/ ٢٠٧، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٧١، ٢/ ١٠٤، ١٠٧، ١٥٣، ٢١٨.

(٥) التحرير والتنوير:٤/ ٢٦٧.

وفي التذييل بهاتين الصفتين بيان لما كان عليه أمر الجاهلية من القساوة والغلظة، فكان التذييل بصفة العلم في مقابل الجهل، والحلم في مقابل القسوة والغلظة، والتأكيد عليهما أبلغ ردٍّ عليهم، وأقوي في إبطال ما كانوا عليه.

وفي تذييل الآية الكريمة " تحريض علىٰ أخذ وصية الله – تعالىٰ – وأحكامه بقوة، وتنبيه إلىٰ أنه– تعالىٰ – فرضها وهو يعلم ما فيها من الخير، والمصلحة لنا فما علينا إلا أن نذعن لوصاياه، وفرائضه، ونعمل بما ينزله علينا من هدايته، كما يشير اسم "العليم" أيضًا إلىٰ وجوب مراقبة الوارثين، والقوام علىٰ التركات لله – تعالىٰ – في علمهم بتلك الأحكام؛ ولذلك قال في الآية السابقة: إن الله كان عليما حكيما فللتذكير بعلمه – تعالىٰ– هنا فائدتان: فائدة تتعلق بحكمة التشريع، وفائدة تتعلق بكيفية التنفيذ[1].

كما تقوي المبالغة في الرد عليهم بالإتيان بالصفتين علىٰ (فعيل) للإشارة إلىٰ أنه لا حدود لاتصافه بهما مما يبعث علىٰ تنفيذ ما يأمر به ممن يتصف بهما–سبحانه وتعالي–.

ما سر اقتران العلم بالحلم دون الحكمة كما في الآية السابقة؟

العجيب أن صفة (العلم) وردت في جميع آيات المواريث؛ لأن الله تبارك وتعالي هو العالم بمصالح العباد في الفرائض والمواريث، فالفرائض صادرة من العليم سبحانه، والله تعالي يفرض وهو الذي يُشرع، وإيثار الوصف بالحلم علىٰ الوصف بالحكمة، والمقام مقام تشريع، وحث علىٰ اتباع الشريعة؛ لا مقام حث علىٰ التوبة فيؤتىٰ فيه بالحلم الذي يناسب العفو والرحمة؟ والجواب عن ذلك: أن التذكير بعلم

(١) تفسير المنار ت: محمد رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م، ٤/ ٣٤٨.

الله- تعالىٰ - لما كان متضمنًا لإنذار من يتعدىٰ حدوده تعالىٰ فيما تقدم من الوصية، والدين، والفرائض، ووعيده، وكان تحقق الإنذار، والوعيد بعقاب معتدي الحدود وهاضم الحقوق قد يتأخر عن الذنب، وكان ذلك مدعاة غرور الغافل، ذكرنا- تعالىٰ- هنا بحلمه ؛ لنعلم أن تأخر نزول العقاب لا ينافي ذلك الوعيد والإنذار، ولا يصح أن يكون سببًا للجراءة، والاغترار، ولا يغرنَّ المعتدي نفسه تأخر نزول الوعيد به، فيتمادىٰ في المعصية بدلًا من المبادرة إلىٰ التوبة، لا يغرنَّ هذا ولا ذاك تأخير العقوبة، فإنه إمهال يقتضيه الحلم، لا إهمال من العجز أو عدم العلم، إنَّ حلم الله - تعالىٰ- لا يزول، ولكنه يعامل به كل أحد بقدر معلوم، فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بحلمه - تعالىٰ-، كما أنه لا ينبغي له أن يغتر بكرمه [1].

والتذييل في هذه الآية يحمل عدة أغراض منها بث الخوف وتوعد المخالفين عن تنفيذ أوامر الله -تعالي- في أحكام المواريث والتلاعب بحقوق أصحابها ومخادعتهم، ويلمح من التذييل كذلك التحريض علىٰ أخذ هذه الحقوق المشروعة من الميراث بقوة وحزم؛ لأنه فريضة من الله تعالي، فهو حق مشروع لا يمكن لأي أحد استلابه واهتضامه، ففي هذه الحالة يُعرِّض نفسه لوعيد الله تعالي وشدة بطشه بالمخالفين شرعه ومنهاجه.

(١)تفسير المنار: ٤/ ٣٤٩.

موازنة بين ايتين:

قول الله تعالي: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء:١١]، وقوله تعالي: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة النساء:١٢].

اختلفت الآيتان نظرًا لاختلاف الأحوال، حيث إن الأولي في بيان ميراث الأولاد والآباء، والثانية في ميراث الأزواج والإخوة.

كما اختلفت المؤكدات تبعًا لاختلاف الأحوال حيث اشتملت الآية الأولي علىٰ مؤكدات أكثر، لأنه من الممكن أن يكون فيهم صغار وضعاف.

أمَّا الثانية فجاءت بالجملة الاسمية فقط دون مؤكدات، حيث توارث الأزواج والإخوة، فاحتمال الضعف فيهم أخف من الأولاد والآباء.

وصُدرتا بالمصدر المحذوف (فَرِيضَةً- وَصِيَّةً) لتأكيد الالتزام والانقياد في تنفيذ أحكام المواريث، وتوزيع الحقوق، وبيان مخالفات جرت في دنيا الناس من أكلٍ للحقوق، وضياع مكانة المرأة وسلب حقوقها، الذي فرضها وقدرها هو المشرع الأول الذي يعلم ما يصلح عباده.

تكرر لفظ الجلالة (الله) أربع مرات لتربية المهابة وإدخال الروعة وتحرىٰ العدل وعدم الظلم، واظهار الاسم الشريف وتكراره يدفع في القلوب المؤمنة كل نزعة شر، والامتثال لأمر الله واجتناب ما نهي عنه.

وقد أُكدت الآية الأولي بـ (إن واسمية الجملة)؛ لأن الآية تشمل الضعفاء من النساء والأيتام التي كانت حقوقهم مهضومة، وأُوثر التعبير بالمصدر بـ (فَرِيضَةً) في الآية الأولي دون (وَصِيَّةً)؛ لأن الفرض لا يكون إلا من الله، بخلاف الوصية فمنه سبحانه وتعالي ومن غيره.

ولمَّا كانت الثانية تختص بميراث الأزواج والأخوة واحتمال الضعف فيهم أخف من الأولاد والآباء جاء الكلام في صورة أقل تأكيدًا وتقريرًا من الآية السابقة، فـ " نبرة التوكيد تعلو، وتهبط في مراقبة دقيقة، وبالغة لمواقع المعاني في النفوس، وما تنطوي عليه دواخلها، وسبحان المحيط بالأسرار" (١).

والتذكير بصفة (العلم) في الآيتين حيث ورد في جميع آيات المواريث، فالله تعالي هو وحده العالم بمصالح العباد في الفرائض والمواريث، وهو الذي يفرض ويقدر لأنه حكيم، أما غيره فقد يحكم بتصريف الهوي والشيطان، كما أن التذكير بعلمه سبحانه وتعالي فيه فائدة بحكمة التشريع، وكيفية التنفيذ ومراعاة المراقبة، وقد ورد ذلك في مفتتح السورة بالأمر بالتقوي والمراقبة، وذلك لأن لا ينسي الذي أخذ الميراث بطريقة غير مشروعة من غفلة الطرف الآخر أو عجزه أنه واقع في حدود علم الله – تعالي- بما فعل كما أنه واقع في حدود عقابه - سبحانه وتعالي- جزاء ما ارتكب من مخالفة الحكم الإلهي، ولكنه (حليم) لم يعاقبه مباشرة بل نبهه إلىٰ ذلك ؛ لكي يرجع إلىٰ الحق ويعطي ما اغتصبه من حقوق الآخرين وإن لم يفعل، فالعقاب له واقع لا محالة.

كما أن إيثار العلم مع الحلم للتنبيه علىٰ أن الأحكام المتعلقة بشؤون الحياة والحفاظ علىٰ قوامها واستقرارها ليست أمورًا دنيوية بحتة كما يتبادر إلىٰ الذهن بل هي أحكام إلهية تؤدىٰ إلىٰ النعيم المقيم في حالة تطبيق شرع الله في أمر الميراث أو الهلاك الشديد عند التخاذل وأكل مال الناس بالباطل.

(١) خصائص التراكيب د محمد أبو موسي مكتبة وهبة، ط٧صـ: ٨٤.

في مقام الهجرة في سبيل الله

يقول الله تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩ ﴾ [سورة الحج:٥٨-٥٩].

سياق الآية مرتبط بما قبله تمام الارتباط، " ولعل قوله: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) ينظر إلىٰ قوله تعالي: (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الحج: ٥٠]، وقوله تعالي: (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) إلىٰ قوله تعالي: (إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحج:٣٨-٤١]، لاحظ أنه قال:(لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا) تدبر بعد ما قررت بسياق الحج ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤ ﴾ [سورة الحج:٢٣-٢٤]، تدبر معها ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [سورة الحج:٥٤].

وضعها بإزاء قوله تعالي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦ ﴾ [سورة الحج:١٦] (١).

كما أن إفراد (المهاجرين) بالذكر تخصيصًا لهم بمزيد الشرف، قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة. وقال بعضهم: الذين هاجروا من

(١) علاقة المطالع بالمقاصد في القران الكريم دراسة بلاغية نظرية- تطبيقية، أد/ ابراهيم صلاح الهدهد ط٢، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، ٥٧٧، وما بعدها.

الأوطان في سرية أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك علىٰ الأمرين، وروىٰ أن طوائف من أصحاب رسول الله- ﷺ- ورضىٰ عنهم قالوا: يا نبىٰ الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين"[1].

تأتي نهاية الآية متمكنة في موضعها غير نافرة ولا قلقلة، فسياق الآية الكريمة يتطلب التوكيد الذي في نهايته، كيف ذلك؟ آية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد، ويبدأ الصراع بذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسلهم ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الحج:٥١]، إلىٰ قوله تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة الحج:٥٨]، وهذا من نتائج الصراع الهجرة من الديار (الأرض والقتل والموت) فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

فالسياق مع أهل الباطل يختلف فهم ساعون معاجزون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجة هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلىٰ زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتنانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس، فإن للسلطان فتنة ورهبة، فاقتضي السياق التوكيد.

سياق الآيات قبلها تجدها داعية للتوكيد ومنادية عليه، حينما ذكر ربُّ العزة جل جلاله وعده للمهاجرين والأنصار ففصَّل جزاءهم وحسن سعيهم علىٰ وجهين، الوجه الأول: الرزق الحسن ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ والثاني ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ترىٰ نغمة التوكيد كيف تعلو وتنخفض، ولعلمه

(١) الكشاف٣/ ١٦٧.

ولطفه بعباده أن فيهم الباغي والمظلوم، تأمل قوله تعالي: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

ومن الملاحظ كثرة المؤكدات في قوله تعالي: ﴿ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة الحج:٥٨]، من تكرار اللام الواقعة في جواب القسم المحذوف، واسمية الجملة مصدرة بلفظ الجلالة لبيان شرفهم، ورفعة مكانتهم، وجهادهم في سبيل الله، والرزق هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع.

وجملة ﴿ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ ﴾ بدل من جملة ﴿ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ ﴾ ، وهي بدل اشتمال، لأن كرامة المنزل من جملة الإحسان في العطاء بل هي أبهج لدىٰ أهل الهمم، ولذلك وصف المدخل بـ ﴿ يَرۡضَوۡنَهُۥۚ ﴾، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلىٰ مطلبهم، علىٰ أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا، كما وقعت جملة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ معترضة بين البدل والمبدل منه، وصريحها الثناء علىٰ الله، وكنايتها التعريض بأن الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين، وأكدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويرا لعظمة رزق الله تعالىٰ[1].

وتعقيب الآية الكريمة بتذييل مقرر لما قبلها للتأكيد علىٰ علو مكانتهم، ورفعة منازلهم، حيث لا رازق سواه ولا معطي غيره، فكل خير يحصله الإنسان في الدنيا منه سبحانه وتعالي، فعطاء الله تبارك وتعالي دائم لا ينقطع؛ لذا قال تعالي: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى

(١) التحرير والتنوير: ١٧/ ٣١٠.

ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٥٨].

التحليل البلاغي للفاصلة

جاء تعقيب الآية الكريمة بقوله تعالي: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ مؤكدة بـ (إن واسمية الجملة) لإفادة الثبوت والدوام، فهو سبحانه وتعالي عليمٌ بما تجشموه من المشاق في شأن هجرتهم، فيجازيهم بما لقوه من أجله من نعيم لا ينقطع، وعطاء بلا حدود،" وفي ذكر التعقيب بـ ﴿ لَعَلِيمٌ ﴾أي: العليم بأحوال من قضىٰ نحبه مجاهداً، عليمٌ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً ﴿ ﴿حَلِيمٌ﴾عن تفريط المفرطين منهم بإمهال من قاتلهم معانداً لا يعاجلهم بالعقوبة"[1].

والتأكيد في ختام الآية يتعانق مع سياق الآية التي قبلها، والتي تليها فمطلعها ﴿ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ﴾- ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ وفي آية الفاصلة يمتد التأكيد ويتسع إلىٰ ﴿ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا ﴾ منتهيًا بالفاصلة وكثرة المؤكدات ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ للتأكيد علىٰ كرمه وعفوه، وأن الله تعالي عليمٌ بما يستحقونه فيجازيهم علىٰ قدر أعمالهم، لا يعجِّل بعقوبتهم عن قدرة وإمهال لا عن ضعف وعجز.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: الأولىٰ- ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ٣/ ٥٤٩، وما بعدها، ويراجع: فتحُ البيان في مقاصد القرآن، ت: أبو الطيب محمد صديق خان (ت: ١٣٠٧هـ)، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ٩/ ٧٤.

في مقام خصوصية من خصوصيات النبي – صلوات الله وسلامه عليه -

يقول الله تعالي: ﴿ * تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٥١].

سياق الآية الكريمة في مقام تعداد خصوصيات المصطفي – ﷺ – وفيها يخاطب الحق جل جلاله نبيه ومصطفاه، ويذكر له شيئًا ممّا خصَّه عليه من إسقاط واجب القسم للزوجات في حقه.

ومعني الآية الكريمة: تُؤخر يا محمد – ﷺ– ما تشاء من زوجاتك، وتضم إليك من تشاء، ومن طلبت من زوجاتك ممن عزلتهن من القسمة، فلا بأس عليك في ذلك ولا حرج، وفي هذا القسم تقرَّ أعينهن بذلك، وتملأ السعادة قلوبهن، وأنفي للحزن عنهن، وأحرىٰ أن يرضين، والله تبارك وتعالي عليم بحقائق نواياكم، وما تنطوي عليه أنفسكم، وما تُقدمون عليه بفعالكم، حليمٌ لا يعاجلكم بالعقوبة، وانما فتح لكم أبواب الإنابة والتوبة.

يلحظ بناء الآية علىٰ الشرطية وهو مناسب للتخيير في مطلع الآية الكريمة، ويتعانق نفي الجناح كذلك مع الشرط في مطلعها، فالأمر كله لسيدنا رسول الله – ﷺ– في التقديم والتأخير، والقرب والبعد.

وقوله تعالي: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ ﴾ جملة استئنافية تحمل معني جديد لم يرد أن يقرنه مع الكلام السابق؛ لإبقائه في بؤرة الحدث، ولفت الانتباه إليه.

ومجيء لفظ الجلالة دون الضمير؛ لإظهار الرهبة وبث الخوف من أجل المراقبة وأخذ الحذر وتحري الدقة، فالله تبارك وتعالي يعلم السِّر والجهر، ويطلِّع علىٰ الظاهر والباطن، والأول والآخر، وهو بكل شيء عليم.

ومن دقة النظم نجد تكرار مادة العلم في كثير من الآيات[1] التي اقترنت بالحلم قبل الفاصلة بأسماء الله الحسني، وهذا يدل علىٰ إثبات الفكرة وترسيخها وإيقاظ القلوب وتنبيه العباد علىٰ أهمية إصلاحها وبثها في ضمير الفطرة الإنسانية.

مناسبة الآية للسورة

نداء النبي- ﷺ- متوفر في هذه السورة بداية من مطلعها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ - قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ ، ومن أهم مقاصد السورة بيان ما شرَّف الله تعالي به نبيه- ﷺ- وبيان مناقبه وما خصَّه به دون غيره من البشر أجمعين.

التحليل البلاغي للفاصلة

ختمت الآية الكريمة باسمين من صفاته العلا (وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)، وهو سياق مطرد في فواصل الآيات عمومًا، والتعبير بالفعل الناسخ(كَانَ) المراد به الأزل والأبد.

وإيثار لفظ الجلالة(الله) من شأنه تربية المهابة في نفوس الناس، واستحضار عظمتهم في النفوس، وزرع الخشية في قلوبهم وأفعالهم.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ): دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٥/ ٣٨٧.

واقتران (العلم) مع (الحليم)؛ ليحذر المؤمن ويخاف، فإن أظهرن خلاف ما أضمرن فالله مُطلع علىٰ ما في قلوبكن وهو رقيب علىٰ كل شيء، وهذا مدعاة كي يراقب العبد ربه في كل حركاته وسكناته.

وجاءت الفاصلة بـ (الحليم) فبعد الحذر والخوف من مراقبة الله لعباده، وعلمه سبحانه وتعالي بما تُخفيه الصدور وما تُبديه، خفف عنه شدة الوطأة وهول المفاجأة بحلمه وكرمه وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ففتح لهم باب الأمل والرجاء، وبث الطمأنينة في قلوبهم.

ويذكر العلامة البقاعي كلامًا يكتب بماء العين، يقول: [حليمًا] لا يُعاجل من عصاه، بل يُديم إحسانه إليه في الدنيا فيجب أن يتقي لعلمه وحلمه، فعلمه مُوجبٌ للخوف منه، وحلمهُ مقتضٍ للاستحياء منه، وأخذ الحليم شديد، فينبغي لعبده المُحب له أن يَحْلُمَ عمن يَعلمْ تقصيره في حقه، فإنه – سبحانه– يأجره علىٰ ذلك بأن يحلُم عنه فيما علمه منه، وأن يرفع قدره ويُعلي ذكره"[1].

وإن كانت هذه الخصوصية في تقريب بعض النساء، وإبعاد إحداهن، ومع كل هذا كان من هديه– ﷺ– من قبل نزول آيات القسمة والعدل بين زوجاته، لم يُفضل واحدة منهن علىٰ أخرىٰ بعطية أو هدية، ولا يسافر بها اختيارًا دون قرعة، ولا يبيت عند واحدة أكثر من غيرها، وهذا من عظمته ورحمته وعطفه صلوات ربي وسلامه عليه.

وكل هذا تجلية للمؤمن وتذكير بنعم الله تبارك وتعالي عليه، فلابد أن يتحلي المؤمن بتلك الأخلاق الرفيعة، ومنها الحلم والعفو والتجاوز فيعم النفع ويكثر

(١) كما مر في آية البقرة في مقام خطبة المعتدة من طلاق أو وفاة بأكثر من طريقة.

الرجاء، فيكون واسع الصدر، فيه من البشاشة والبشر لأهله وإخوانه والناس أجمعين، ويتخلق بصفة من صفات الله تبارك وتعالي ومن صفات الأنبياء والصالحين ألا وهي:(الحلم).

تداخل السياقات مع بعضها

يلحظ امتداد السياق القرآني، حيث إن قوله تعالي: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ ﴾ [سورة الأحزاب:٥١]، هو نفسه في سورة البقرة كما ورد في شأن خطبة المعتدة من طلاق أو وفاة، يقول الله تعالي: ﴿ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ ﴾ - ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾مع الأخذ في الاعتبار مراعاة نفي الجناح هنا أيضا كما ورد في آية التعريض بخطبة المعتدة، غير أن نفي الجناح في آية الأحزاب جاء في وسط الآية، بخلاف خطبة المعتدة فجاءت مصدرة.

المحور الثالث: دلالة اقتران الغني والشكر بالحلم.

جمعتهما في محور واحد لشمولهما علىٰ شاهد واحد لكل محور، رغبة في تقليل التقسيمات، وكذلك ورودهما في مقام واحد.

في مقام الإنفاق

الموضع الأول: ﴿ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٣].

الآية تعالج خلقًا اجتماعيًا سيئًا، ينبع من داخل النفس البشرية التي تحب الفخر والمباهاة بالإنفاق والمنِّ علىٰ المحتاج، وتعمد إيذاءه وإحداث جرح عميق في قلبه.

كما أن أسوأ ما يصاحب الإنفاق هو إيذاء نفسية الفقير وذوي الحاجات، وهو صورة منتشرة منذ القدم، فبعض الأغنياء يتخذون من إحسانهم إلىٰ الفقير ومعاونة المحتاج وسيلة لتسخيره واستخدامهم في مصالحهم وتعمد إشعاره بفضله عليهم، والتعالي وتحقيره، وكل هذا إيذاء نفسي وجرح معنوي للمشاعر، وقد نهي الإسلام عنه وحاربه.

يرشدنا المولي تبارك وتعالي إلىٰ أن صدور قول معروف من شخص خير من صدقة يتبعها بإيذاء المتصدق عليه، وينصحنا بالمواساة النفسية التي تحفظ للفقير وذوي الحاجات كرامتهم وعزة نفسهم، ولو دون مساعدتهم ماديًا يكون خيرًا لهم من إهانتهم والمساس بكرامتهم، ولذا صُدرت الآية الكريمة بالقول المعروف سواء في الكلمة أو بشاشة الوجه، فردٌّ جميل ودعاء طيب من المعطي للمعطي له وستر لحاله وما علم من حاجته، أو حصول مغفرة من الله بسبب الردِّ الجميل والستر علي صاحب الحاجة خير من صدقة يتبعها شكاية المتصدق عليه وإهانته وشتمه.

وإيثار التنكير في (قول- مغفرة) لإرادة العموم أو التقليل، فالمراد كل قول طيب جميل بعيد عن القبح، والستر علىٰ السائل وعدم فضحه، أو التقليل علىٰ أساس أن المراد من (مغفرة) نيل المتصدق المغفرة من الله تبارك وتعالي جزاء علىٰ صدور القول المعروف منه للمتصدق عليه، فأقل شيء يحصل عليه المتصدق من مغفرة الله عز وجل هو خير من صدقة يحرم أجرها ؛ لأذيته المتصدق عليه.

والتنكير في(أذي) للعموم لشمول هذه الكلمة لكل أذي يمكن أن يصدر من المتصدق للمتصدق عليه، وللتقليل لإفادة أن أقل القليل من الأذي يُذهبُ عن الصدقة خيريَّتها ويبطل أجرها.

وهذا يجعل المتصدق حريصًا علىٰ عدم صدور أي سلوك صغيرًا ضئيلًا يلحق بسببه أذي للمتصدق عليه، وفي هذا مراعاة لشعوره والحرص علىٰ حفظ كرامته.

التحليل البلاغي الفاصلة

ختمت الآية بتذييل بليغ ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ أي: والله غني عما يتصدقون، حليمٌ حين لا يُعجِّلُ بالعقوبة علىٰ من يَمنُّ بصدقته منكم ويؤذي فيها من يتصدَّق بها عليه"[1]. والغني: صفة مشبهة بمن اتصف بالغني، وهو الغني المطلق لا يشارك الله فيه غيره.

والتذكير بهاتين الصفتين ؛ ليتخلق بهما المؤمن وهما: (الغني) الراجع إليه الترفع عن مقابلة العطية بما يُبَرِّدُ غليل شح نفس المعْطِي، و(الحِلْمُ) الراجع إليه العفو والصفح عن رُعُونة بعض العُفاة"[2].

---

(١) جامع البيان للطبري ٤/ ٦٥٨.

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٤٧.

كما أن تذييل الآية بهذه الجملة دليل ساطع وبرهان قاطع علىٰ أن الله تبارك وتعالي غَنِيٌّ عن صدقة متبوعة بالمنَّ والأذىٰ بل عن أي صدقة يُخرجها المسلم، فهو" الغني الذي كَمُلَ في غناه " غير محتاج إلىٰ عبده من عبيده بل العباد محتاجون إليه، وهو "الحليم" الذي قد كَمُلَ في حلمه"[1]، فلا يُعجَّل بالعقوبة لمن استحقها، بل يترك لهم المجال فسيحًا للرجوع والإنابة والتوبة.

وسر إظهار لفظ الجلالة دون الضمير؛ لتربية المهابة والإجلال في نفوس المؤمنين، وللتفخيم والتعظيم، مع زيادة تمكنه في ذهن السامع وكمال العناية بتمييزه، وبيان أن الله تبارك وتعالي غني عن صدقتهم التي يشوبها التكدير والعُجب.

ويلحظ تتابع أسماء الله الحسني، فـ (الغَنِيُّ) الذي يتفضل علىٰ جميع خلقه وهو الغني عنهم، وهو الذي يبسط الرزق وينشره علىٰ عباده، وهو (الحليم) الذي يراعي ضعفهم، ووهن قلوبهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يصفح ويتجاوز.

وفي التعقيب عتاب بالغ العقاب واللوم ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ حيث يتضمن إشارة بالغة الخطورة لهذا الذي يمُنُّ بإحسانه ويفتخر بكثرة عطائه، بأن المولي تبارك وتعالي غني عن إحسانك وإنفاقك إذا كنت تتخذه وسيلة للمَنِّ علىٰ الفقير وتعمد إيذائه والمساس بكرامته وعزة نفسه.

(١) جامع البيان للطبري ٤/ ٦٥٨

الموضع الثاني:

اقترن الشكر بالحلم، وذلك في قوله تعالي: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٧].

لم تبعد هذه الآية عن أختها السابقة في سورة البقرة حيث تمتد وتتسع في العطاء والبذل والانفاق في سبيل الله تعالي، غير أن آية البقرة جاءت في ثوب الصدقة التي تخلو من المنِّ والأذىٰ، ومغلفة بثوب الخيرية لقول المعروف إذا تبعت الصدقات المساس بشعور المتصدق عليه، وتلكم سماحة الإسلام، فللشعور أهمية عظيمة في الإسلام، وآية التغابن تحث علىٰ القرض الحسن، فاختلفت في الصياغة وتنوع التراكيب.

مجيء الآية الكريمة في ثوب الشرطية حث علىٰ المسارعة في البذل والعطاء وتقديم المعروف والاحسان ومضاعفة الجزاء، وفي الشرط شيء من الندرة ؛ لأن التعلق بحب المال جُبل عليه الإنسان، فيتشبث به طوال حياته، فجاء بأسلوب الشرط للحث والترغيب والإقبال علىٰ الإنفاق في وجوه الخير والبر، وخصوصًا بأن فتن الحياة ومفاتنها كثيرة، ومن ذلك التعلق بالولد وحب المال فقد يثني وينسي الإنسان وظيفته في الحياة فيضل ويهلك ويبخل.

وفي إيثار القرض في مقام الإنفاق بعث للأمن في النفس حتي تطمئن إلىٰ عود ما أنفقته في الخير، ويَعدُ الله تبارك وتعالي أنه حين يعود لن يكون كما كان، بل سيعود أضعافًا مضاعفة والدعوة إلىٰ الإنفاق بهذا الأسلوب استعارة تمثيلية، ومن الممكن حملها علىٰ الاستعارة التصريحية التبعية، شبه فيها الإنفاق في سبيل الله بالقرض المعروف بين الناس، والجامع بينهما هو عودة المال إلىٰ صاحبه الأول في كل، حتي

لا يقع في وهم المُنفق في سبيل الله أن ما أنفقه ذهب سُديً، وهذا فيه حث علىٰ الإنفاق.(١)

وفي تسمية البذل والعطاء قرضًا لله، وهو بذل للمحتاجين ؛ تشريف للإنفاق المحثوث عليه، وضمان له من الضياع ؛ لأن الله تبارك وتعالي له ميراث السماوات والأرض كما ورد في آية الحديد ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [سورة الحديد: ١٠].

وفي وصف القرض بـ (الحسن) احتراس ؛ لئلا يدخل فيه بذل المال الخبيث، أو المنِّ والأذىٰ كما ورد في آية البقرة السابقة ﴿ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٣]، ووصف القرض بالحسن ؛ لأنه لا يرضىٰ الله به إلا إذا كان مُبرَّأ عن شوائب الرياء والأذىٰ (٢).

أما الجزاء بالمضاعفة أدناها أن يجعل الواحد عشرا، وقد يزيد المضاعفة إلىٰ سبعمائة كما في آية سبع سنابل، ويضاف إلىٰ مضاعفة الجزاء تفضله سبحانه وتعالي بغفران خطايا المُقرض، وذلك ببركة الإنفاق.

وهنا نتبصر دور الإنفاق في حياة المؤمن وتحقيق الفوز العظيم والنعيم المقيم يوم القيامة، وأنه جزاء مضاعف، وتخليص للمنفق من خطاياه التي تثقله؛ لينهض سريعًا في مضمار السباق، ومن ثم يبدو الارتباط الشديد لهذا الجزاء بسورة التغابن، فترتد الآية إلىٰ مطلع السورة، والمقطع علىٰ المطلع، ورد العجز علىٰ الصدر.

---

(١) التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الكريم د/ عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة ط٣/ ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ١٣٢، وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير٢/ ٤٨٢.

والسياق الذي أحاط بالآية يتظاهر علىٰ خطاب المؤمنين بما ينهض بهم إلىٰ الفوز في السباق، كيف ذلك ؟ سياق الآية التي قبلها يحث عليه ويدعمه بقوة، حيث وردت مجموعة من الأوامر الإلهية، وذلك في قوله تعالي: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٦]، ومن قبلها ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٥].

فالتخلص من هذه الفتنة الخطيرة هو انفاق المال في وجوه الخير والبر، وجاءت الجملة الأخيرة من الأوامر تحثُ علىٰ الإنفاق، والأمر هنا للفرض والنفل، فارتبط ختامها بمطلع الثانية، وبدأت حلقة جديدة في بيان القرض الحسن ومضاعفة الثواب.

كما ارتبط ختام الآيتين فاشتد التلاحم والتعانق، حيث إن الأولىٰ دلت علىٰ الخيرية للمنفق أمواله في وجوه الخير، والثانية ضاعفت ذلكم العطاء الجزيل بالثواب العميم والغفران الجميل مع مزيد من البيان والتفصيل، ضع قوله تعالي: (خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ) بإزاء قوله تعالي: ﴿ يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٧]؛ لترىٰ عِظَمَ ثواب الإنفاق وثمرة حلاوته، وجليل نفعه، وسابغ مننه.

وعند تبصر قوله تعالي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ ﴾ [سورة التغابن:٩]، تجعل المؤمن ينتهج سبيل الخير استجابة وبذلًا واستجماعًا لكل معاني التقوي والفلاح في هذا السباق المهيب.

مناسبة الآية للسورة

والمناسبة قائمة بين القرض والحسن والحث علىٰ الإنفاق باسم السورة (التغابن) والغَبْنُ: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء، فإن كان ذلك في مال يقال: غَبَنَ فلانٌ، وإن كان في رأي يقال: غَبِنَ[1]، وسمىٰ يوم القيامة يوم التغابن؛ " لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار. أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار علىٰ طريق المبادلة، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب" [2].

وسميت التغابن بهذا الاسم لما ذكر فيها من زعم الكافرين أن لن يبعثوا، وقد ردَّ الله عليهم زعمهم ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ ﴾ [سورة التغابن:٧].

ثم بيَّن- سبحانه وتعالي- أنه يجمع الأولين والآخرين. ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾ [سورة التغابن:٩].

فالمادة تدور حول البخس في المعاملة، في ضرب من الإخفاء والضعف والاهتضام.

ولما كان يوم القيامة هو يوم الجزاء علىٰ الأعمال، جزاء هو أعدل ما يكون، فإن هذا المعني للغبن أبعد ما يكون عن الجزاء الذي يلقاه كل إنسان -من ربه- علىٰ عمله، ويكون موطن التغابن بين المجازين بعضهم وبعض، بل وبين كل إنسان ونفسه، مع أن المراد بالتغابن معني آخر مجازي لا معناه الحقيقي، إذ" هو تصوير لما

---

(١) المفردات في غريب القرآن ت: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ (ت: ٥٠٢هـ). تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: الأولىٰ - ١٤١٢ هـ١/ ٦٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ١٨/ ١٣٦.

يقع من فوز المؤمنين بالنعيم وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلىٰ الجحيم. فهما نصيبان متباعدان. وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء، وليغبن كل فريق مسابقه! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون! فهو تغابن بهذا المعنىٰ المصور المتحرك!"[١].

والتغابن صيغة تفاعل،معرفة بأل، والتغابن يوم القيامة يكون علىٰ سبيل التمثيل والتصوير، فهو –إذن– مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضا؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. وفيه تهكم بالأشقياء، لأنّ نزولهم ليس بِغَبْنٍ [٢]، وقيل بأن التغابن علىٰ ظاهره[٣].

والتغابن الحقيقي في استعظام هذا اليوم الشديد ينبغي للإنسان العمل بمقتضاه واهتضام نفسه، وأن يسابق الزمن في المسارعة لفعل الخيرات التي تؤمنه في الأخرة والوقوف أمام ملك الملوك، لا في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت.

التحليل البلاغي للفاصلة

اقترن الحلم هنا بالشكر، يقول الإمام ابن القيم:

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم لكن يضاعفه بلا حسبان[٤]

---

(١) في ظلال القرآن الأستاذ: سيد قطب، دار الشروق- بيروت- القاهرة ط: ١٧ - ١٤١٢هـ، ٦/ ٣٥٨٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٤٩.

(٣) تراجع هذه المسألة بالتفصيل في بحث:من أسرار التعبير القرآني في سورة التغابن أد/ عبد الحافظ إبراهيم البقري، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٨١٨ وما بعدها.

(٤) شرح أسماء الله الحسني: ١٣٨.

الذي يشكر القليل من العمل، ويعفو عن الكثير من الزلل، الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عدٍ ولا حساب، ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

والتعبير بصيغة المضاعفة واقترانها بالمغفرة دلالة علىٰ مزيد من العطاء ومضاعفة الثواب الذي يستحقه المنفق في سبيل الله، وهذا يناسبه الشكر، مضافًا إليه المغفرة والإنابة والرجوع إلىٰ الله تعالي فيما انزلقت فيه قدم الإنسان، فيتبعه حلم الله – تعالي- وعدم معاجلته بالعقوبة، وفي الآية الكريمة لف ونشر مرتب؛ حيث المضاعفة تعود للشكر، والمغفرة لحلمه والطمع في رضاه وعفوه.

وحلمه – تعالي- في نهاية الآية وعدم معاجلتهم بالعقوبة مع استطاعته إنفاذ وعيده، وإبقاء سنته في خلقه، لكنه تبارك وتعالي يصفح عنهم، ويحلم بهم، رغم كفرهم وإنكارهم للبعث، كما ورد في قوله تعالي: [زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا].

كما أن الختام بهذين الوصفين، والتذكير بهما يزيد ثقة المقترضين بسعة عطائه وجميل صفحه، حيث يجزئ علىٰ القليل بالكثير، حليمٌ يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات"[1].

ويمتد سياق الحلم والمغفرة في الآية بعدها ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٨]، ولما كان الحليم قد يُتهم في حلمه بأن ينسب إلىٰ الجهل بالذنب أو بمقداره قال: [عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ]، وهذا الوصف داع إلىٰ

(١) تفسير القرآن العظيم الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط: الأولىٰ – ١٤١٩هـ، ٨/ ١٦٤.

الإحسان من حيث إنه يوجب للمؤمن ترك ظاهر الاسم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله كأنه يراه.

ولما شمل ذلك كل ما غاب عن الخلق وما لم يغب عنهم فلم يبق إلا أن يُتوهم أن تأخير العقوبة للعجز قال: (الْعَزِيزُ) أي: الذي لا يُغالب. ولما كان ذلك قد يكون لأمر آخر لا يمدح عليه قال: (الْحَكِيمُ) أي أنه ما أخره إلا لحكمة بالغة يعجز عن إدراكها الخلائق(١).

وفي الآية الكريمة لف ونشر مرتب، فشكره تبارك وتعالي عائد إلىٰ المضاعفة، وحلمه عائد إلىٰ غفران الذنوب، ولا يخفي ما فيه من جمال، وثقة في السامع برد كل واحد من الوصفين إلىٰ ما هو له.

تعقيب

وردت تراكيب متشابهة في ختام الآيات في سورة البقرة والحديد والتغابن أجملها فيما يأتي:

- اقتراب مقصد سورتي البقرة والتغابن فكلاهما حض علىٰ الجهاد والإنفاق في سبيل الله، وهذان السببان يتحقق بهما العدل وتقوم عليهما الدول، وهذا يتعانق مع العهد المدني الذي يقوم علىٰ التضحية والبذل.

- الاستفهام في سورة البقرة للحث والمسارعة في البذل وندرة الفعل من الفاعل، والشرط كذلك في التغابن فيه ندرة وشك حدوث وتوقع ؛ لأن التعلق بالمال والأولاد أكثر، وهما من مثبطي العزائم ومدعاة للثقل والكسل، فالمسارعة من أصحاب الهمم العالية في فعل الخيرات، وبذل القربات هنا أيضًا مطلوبة؛ لتمييز الخبيث من الطيب، وفيه استنفار لهمة المؤمنين المخلصين.

---

(١) نظم الدرر: ٢٠ / ١٣٥-١٣٨.

- وصف القرض بالحسن فيه صفة الإخلاص؛ لئلا يدخل فيه المال الخبيث، الذي يتبعه صاحبه بالمنِّ والأذي، أو لا يُراد به وجه الله تعالي.

- ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [سورة البقرة:٢٤٥]، وفي الحديد ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الحديد: ١١] فما الفرق بين الآيتين؟

في الحديد زاد بالأجر الكريم، وهو الحسن البالغ الجودة. وفي البقرة ذكر الكم [أَضْعافًا كَثِيرَةً] هنا مكان الأضعاف الكثيرة فذكر الكم، وفي الحديد ذكر الكمّ [فَيُضاعِفَهُ لَهُ] وذكر الكيف [وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ]؛ لأن سورة الحديد مطبوعة بطابع الإيمان والإنفاق هذا أمر، والأمر الآخر أنه قال في سورة البقرة : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾يقبض معناه:يضيّق الرزق ويُمسك، هذا في الدنيا. محتمل إذن الشخص يناله قبض أو بسط، صاحب المال محتمل أن يصيبه قبض فهذا الذي يصيبه القبض والتضييق في الرزق يحتاج إلىٰ المال، فقال:[أَضْعافًا كَثِيرَةً] فأنت أَنْفِقْ حتىٰ لا يصيبك القبض وحتىٰ يأتيك البسط. هذا من باب تبصيره في الأمر لأنه يحتاج إلىٰ المال، ولذلك جاء في آية أخرىٰ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٦١]، في مقام التكثير فناسب التكثيرُ التكثيرَ في السورة[1].

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د / فاضل السامرائي دار عمار ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ١٩٧.

- أما المضاعفة في آية التغابن فجمعت بين خيري الدنيا ونعيم الآخرة، حيث جلبت السرور ودفعت الشرور، فجمعت بين المضاعفة للثواب، وعدم المعاجلة بالعقاب، في ثوب بديع خلاب، وهما أغلىٰ ما يحصله المؤمن في دنياه وأخراه.

المحور الرابع: تقديم الحلم علي المغفرة.

في مقام التسبيح والتنزيه

تقدم الحلم على المغفرة في موضعين اثنين، الموضع الأول:

يقول الله تعالي: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

لما أقام الحق في الآيات السابقة الدليل القاطع علىٰ كونه منزهًا من الشركاء أخبر سبحانه أن السماوات والأرض تُسبحه وتُقدسه وتعظمه، وكذلك كل من فيها من مخلوقات، ثم زاد ذلك تعميمًا وتأكيدًا ؛ ليشمل كل شيء خلقه- الله تعالي-، والكون كله صامته وناطقه، أحياؤه وجماده، ناطق بعظمة الله ومُنقاد لأمره، ومُسبح بحمده، والسماوات التي هي جماد يجعل الله جلَّ وعلا فيها الإحساس والخوف منه، وقد أخبر جلَّ وعلا أنها تُسبح بحمده، فقال سبحانه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

فعند ذلك تتبين عظمة الله-تعالي- وأن الذين يدعون أحداً غير الله ظالمون وهالكون، وأن الدعوة يجب أن تكون لله جلَّ وعلا، فإذا كان هذا بالنسبة للملائكة فكيف بالنسبة للبشر الضعفاء؟! كيف بالنسبة للجمادات وغيرها؟! فهذا دليل واضح علىٰ أن كل دعوة لغير الله باطلة.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [سورة فصلت: ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ﴾ [سورة البقرة: ٧٤].

وفي "البخاري" عن أبي مسعود قال:" كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل"، وكذلك في قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي- ﷺ- قبل اتخاذ المنبر"[(١)]، ومثل هذا كثير.

جاء اسم الله (الحليم الغفور) في بيان عظمة تنزيه الله – تعالي- بلسان المقال ممن يصح منه، وبلسان الحال[(٢)] منه ومن غيره، ولهذا المعني قال: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ " وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال أحدها: أنه تسبيح لا

---

(١) صحيح البخاري ٣٥٧٩، ٣٥٨٣.

(٢) قال محمود: «المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل علىٰ الصانع... الخ» قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله كانَ حَلِيمًا غَفُوراً وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون. وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه- والله أعلم- من عدم العمل بمقتضىٰ ذلك، فان الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلىٰ أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلا عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف علىٰ الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالىٰ عليه، مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالىٰ وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته، وتيقظ لذلك حق التيقظ، لكاد أن لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطابًا علىٰ الغالب في أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق. فالحمد لله الذي كان حليمًا غفورًا، حاشية ابن المنير علىٰ الكشاف: ٢/ ٦٦٩.

يعلمه إلا الله، والثاني: خضوعه وخشوعه لله، والثالث: دلالته علىٰ صانعه، وعلىٰ ذلك يكون الخطاب لجميع الخلق علىٰ الرأي الأول باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح"[1].

وقد استهلت الآية الكريمة بالفعل المضارع (تُسَبِّحُ) دلالة علىٰ تجدد التسبيح والتعظيم لله سبحانه وتعالي، وفي تقديم الجار والمجرور(له) علىٰ الفاعل إشارة إلىٰ اختصاصه تعالي- بالتقديس، وأنه لا يُسبح بحمده إلا هو، كما يلمح في التقديم استحقاقه - تعالي- للتسبيح قبل معرفة فاعله.

ولفظ التسبيح ومشتقاته ورد في سورة الإسراء خمس مرات، ثلاث منهم بلفظ (سبحان) واثنتان بلفظ الفعل والمصدر(تسبح- تسبيحهم)، واللفظ علم للتنزيه، ومن كان علىٰ غاية النزاهة عن كل نقص كان جديرًا بأن لا تعبدوا إلا إياه.

وفي تقديم السماوات علىٰ الأرض يرجع إلىٰ أن آيات الله في السماوات أعظم منها في الأرض، فقد رفعت بلا عمد، وزينت بالكواكب والنجوم وغير ذلك من آيات الله الباهرة الدالة علىٰ عظمته - تعالي-، وقدم السماوات علىٰ الأرض؛ لشرف السماء، ولأن السموات كلٌ من فيها مطيع خاضع، أمَّا الأرض فأكثر من فيها من بني آدم ومن الجِنَّة عصاة.

كما أن التعبير بلفظ الجمع مع التصريح بالعدد (السبع)؛ لأن المراد الإخبار عن تسبيح سكانها علىٰ كثرتهم، وتباين مراتبهم، أي: تُسبح بذواتها وأنفسها علىٰ اختلاف عددها؛ ولهذا صرح بالعدد (سبع) [2]، ثم أثبت التسبيح لمن في السماوات والأرض من ملائكة وأنس وجن توبيخًا وتقريعًا لهؤلاء القوم الذين أشركوا بالله -

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٥٤، التحرير والتنوير: ٨/ ٢٤١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ت: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ط: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م، ٨١٤.

تعالي-، فقال (ومَنْ فِيْهِنَّ) " ثم أعاد علىٰ السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليه فعل العاقل وهو التسبيح[1].

والتعبير بأسلوب القصر وطريقه النفي والاستثناء في قوله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ دلالة علىٰ العموم بطريق إن النافية مع زيادة (من) للاستغراق، وتنكير شيء للعموم، والتعبير بالمضارع لاستحضاره ماثلًا أمام العين، فجميع الأشياء تسبح من حيوان ونبات وجماد عظم أم صغر، قل أو كثر.

وفي قوله تعالي: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ تنكيت[2]، فإيثار(تَفْقَهُونَ) دون(تَعْلَمُونَ) لما في الفقه من الزيادة علىٰ العلم ؛لأنه التصرف في المعلوم بعد علمه واستنباط الأحكام منه والمراد الذي يقتضيه معنىٰ الكلام التفقه في معرفة التسبيح من الحيوان البهيم والبنات والجماد وكل ما يدخل تحت لفظة شيء مما لا يعقل ولا

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولىٰ – ١٤٢٢هـ، ٣/ ٤٥٩.

(٢) «فن التنكيت». وهو أن يقصد المتكلم إلىٰ شيء بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود ترجح اختصاصه بالذكر دون ما يسد مسده، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد، يراجع: البديع في نقد الشعر، ت: أسامة بن منقذ الكناني الشيزري (ت: ٥٨٤هـ) تح: الدكتور أحمد أحمد بدوي- وزارة الثقافة والإرشاد القومي صـ: ٥٦، ويراجع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ت:/ ابن أبي الإصبع (ت: ٦٥٤هـ) تح: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي صـ/ ٤٩٩.

ينطق إذ تسبيح ذلك بمجرد وجوده الدال علىٰ قدرة مُوجِده وحكمته[١]، و" للإشارة إلىٰ أن المنفي علم دقيق "[٢].

وعلة اختيار اسم الله (الحليم الغفور) ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: اختياره في هذا السياق يدل علىٰ أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جُرمٌ عظيمٌ صدر عنهم، وهذا إنما يكون جُرمًا إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة علىٰ كمال قدرة الله تعالي وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا تلك الدلائل"[٣]، هذا إن فسرنا التسبيح علىٰ ما درج في الأشياء من العبر، وأنها مسبحات بمعني: مودعات من دلائل العبر ودقائق الإنعامات والحكم ما يُوجب تسبيح المعتبرالمتأمل"[٤]، ولهذا المعني يقول تعالي: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة يوسف:١٠٥].

فهو تذييل من تتمة الإنكار علىٰ الوجه لحلمه عن المخاطبين، وعما جرىٰ في ذلك من الإفراط والإهمال، فذكر(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) هنا يُفيد التعريض بهم، وأن

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ت: محيي الدين بن أحمد مصطفىٰ درويش (ت: ١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ط: الرابعة، ١٤١٥ هـ، ٥/ ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/ ١١٥

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٢٠/ ١٧٦

(٤) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٩٢.

حالهم هذا يقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا لولا أن الله عاملهم بالحلم والإمهال مع ما هُمْ عليه من الإعراض عن التدبر في الدلائل الواضحة الدالة علىٰ التوحيد(١).

الوجه الثاني: إن جعلنا التسبيح حقيقة في الحيوانات بلغاتها فمعناه: أن الحلم والغفران مراعاة للمقدر في الآية وهو العصيان، فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر في بادئ الرأي وذكر في حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح ولا عصيان في حقها وأنتم تعصون ختم به مراعاة للمقدر في الآية وهو العصيان، وقيل التقدير:(حَلِيمًا)عن تفريط المسبحين،غفورًا لذنوبهم وقيل:(حَلِيمًا)عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بإهمالهم النظر في الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع في مخلوقاته مما يوجب تنزيهه(٢). لأن الحليم الصفوح مع القدرة، المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة (٣).

وللرازي رأىٰ أخر يقول: "أمَّا لو حملنا هذا التسبيح علىٰ أن هذه الجمادات تسبح لله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرمًا ولا ذنبًا (٤).

وإذا لم يكن ذلك جرمًا ولا ذنبًا لم يكن قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لائقا بهذا الموضع، فالتسبيح في الآية محمول علىٰ حقيقته، وهو - أيضًا- دلالة علىٰ قدرة

---

(١) أثر السياق في بنية الآيات المنتهية بأسماء الله الحسني دراسة تحليلية د/ هانم محمد حجازي الشامي، مكتبة الآداب- القاهرة ط١، ٢٠١٣م، ٢٨، وما بعدها.

(٢) البرهان: ١/ ٩٢، والإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ٣/ ٣٥٣ بتصرف.

(٣) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي: ١/ ٢٥٥.

(٤) التفسير الكبير: ٢٠/ ١٧٦.

صانعه، فإن كان كلام الجماد مُسَّلمًا، فينبغي أن يكون تسبيحه أيضًا مُسَّلمًا، قال تعالي: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة ص:١٨].

وقد رجع الإمام الرازي عن رأيه هذا في تفسير قوله تعالي: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الرعد:١٣].

فإنَّ الرعد يسبح الله سبحانه، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل علىٰ حصول التنزيه والتقديس، فلما كان هذا الصوت دليلًا علىٰ وجود متعالٍ عن النقص والإمكان، كان ذلك- في الحقيقة- تسبيحا[1]، وهو معني قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الإسراء:٤٤]، فالتسبيح يدل علىٰ وحدانية خالقه، ولهذا حن الجذع لرسول الله "- ﷺ- كان المسجد مسقوفا علىٰ جذوع " [2]، وفي حديث: "إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم علي" [3]، وفي حديث علقمة "اطلبوا فضلة من ماء" [4].

كما أن هناك دراسات تثبت أن هذه الأشياء تعيد التوازن الطبيعي للكون، ولولاها لاختل التوازن البيئي[5]، وقال أهل العلم: نثبت التسبيح لها، ولعل لها لغة لا

---

(١) التفسير الكبير: ١٩/ ٢١.

(٢) صحيح البخاري باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٥)

(٣) ينظر صحيح مسلم، باب فضل نسب النبي - ﷺ - وتسليم الحجر عليه قبل النبوة(٢٢٧٧)، وصحيح ابن حبان باب المعجزات(٦٤٨٢).

(٤) صحيح البخاري باب علامات النبوة في الإسلام(٣٥٧٩).

(٥) وقد ذكر الإمام ابن تيمية فصل بعنوان: (قنوت الأشياء لله عز وجل، وإسلامها، وسجودها له، وتسبيحها له)، ينظر: جامع الرسائل ت: تقي الدين محمد ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) تح: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء- الرياض، ط: الأولىٰ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

نفهمها نحن، تسبح بها، والله يعلم سبحانه وتعالىٰ وأنتم لا تعلمون، وهذا هو (سخروف) العالم الروسي الذي نفي أيام برجنيف إلىٰ سيبيريا أثبت أن للنبات ذبذبات، كان بعض علماء السلف يقول: النباتات تسبح، فأتىٰ العلم الحديث يقول: النبات يطلق ذبذبات من الصوت لا يفهمها إلا النبات الآخر، فسبحان من خلق، فالعلم الآن يدعو إلىٰ الإيمان، وكلما ارتقىٰ العلم أثبت وجود الواحد الأحد.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النور: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ [سورة الحج:١٨]، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي تدلُّ علىٰ معرفة الجمادات بربها، وتسبيحها له.

الوجه الثالث: أن ذكر(الحلم والمغفرة) عن تفريط المسبحين وتقصيرهم[1]. يؤيد ذلك قوله تعالي في موضع آخر:﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [سورة الشورى:٥].

ونجمل ذلك في ثلاثة معان[2]:

-الحلم والإمهال لما في هذه الأشياء من دلائل العبر ودقائق الحكم، ومع ذلك يكفرون بآيات الله ويجعلون معه آلهة أخرىٰ، وعلىٰ ذلك فالخطاب للمشركين خاصة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن١/ ٩٢، في ظلال القرآن الشيخ / سيد قطب ٤/ ٢٢٣١.

(٢) أثر السياق في بنية الآيات المنتهية بأسماء الله الحسني دراسة تحليلية د/ هانم محمد حجازي الشامي، ٢٨، وما بعدها.

-أن الأشياء كلها تسبحه ومنها ما يعصيه ويخالفه، فيغفر ذلك بتسبيحهم. فتكون الآية علىٰ العموم.

- أن ذكر الحلم والغفران للتقصير في ظل هذا الكون المسبح بحمد الله. والخطاب للمسلمين عامة، وللمقصرين خاصة.

دلالة (كان والضمير المتصل) مع أسماء الله الحسني

(كان) تدل علىٰ معني الديمومة والاستمرار، لا سيما فيما يتعلق بصفات الله عز وجل، فتأتي (كان) منصوبة موقوفاعليها بالألف الممدودة، وهو حرف بين الشدة والرخاوة، ومن الحروف الهاوية ؛لأن مخرجه اتسع لهواء الصوت[١]، لمراعاة الإيقاع الدلالي المناسب لمعني الأزلية، والتناسب الموسيقي لفواصل الآيات، فحلمُ الله تعالي وإمهاله كان ولا زال حاضر في كل وقت، يقول صاحب البرهان:" فحيث وقع الإخبار بـ "كان" عن صفة ذاتية فالمراد الإخبار عن وجودها وأنها لم تفارق ذاته ولهذا يقررها بعضهم بما زال "[٢]، فـ " كان" تعبر عن اتصال الزمن من غير انقطاع، أي: لم يزل علىٰ ذلك، وهذا يفسر وجودها في جملة الخاتمة.

وجاءت جملة التذييل مؤكدة بعدة مؤكدات(إن) والضمير المتصل والفعل الناسخ(كان)، مع ذكر اسمين من أسمائه الحسني للدلالة علىٰ تحقق هاتين الصفتين له تعالي منذ الأزل.

وإيثار ضمير الشأن مسبوقًا بـ (إنَّ) دون لفظ الجلالة فيه دلالة علىٰ دندنة خاصة من جميع المخلوقات في صوت واحد في أماكن متعددة، لا تتداخل أصواتها مع

---

(١) سر الفصاحة ٣٠، المفصل في صنعة الإعراب٥٤٨.

(٢) البرهان: ٤/ ١٢٣.

بعضها الآخر تدركها عناية القدير جل جلاله وتقدست أسماؤه، والله تعالي أعلىٰ وأعلم.

والحلم والغفران لطفٌ من الله تبارك وتعالي بعباده، حيث يحلمُ علىٰ عباده، فالكون كله يسبح بحمده، ومن يرزقهم من البشر في جمود وقسوة، وهم أولي بهذا التسبيح، فلولا حلمه تعالي لأخذهم بذنوبهم، وما ترك عليها من دابة، ولكنه رحيمٌ بهم، يمهلهم عن قدرة وتمكن، ويعظهم ويزجرهم ؛لأنه يستر الذنب، ويؤخر العذاب عنهم، ولا يعجل بالعقوبة.

" ولما كان الغالب علىٰ أحوال البشر أن حليمهم إذا غضب لا يغفر، وإن عفا كان عفوه مكدراً، قال تعالىٰ: ﴿غَفُورًا﴾ مشيراً بصيغة المبالغة إلىٰ أنه علىٰ غير ذلك ترغيبًا في التوبة"(١).

وأما التذييل بقوله:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾، فوجهه كما أشار إليه المصنف رحمه الله أنه لا يُعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وقصورهم في النظر ولو تابوا لغفر لهم ما صدر منهم فكأنه قيل: ما أحلم الله وأكرمه وهذا في غاية البلاغة والانتظام" (٢).

والتذييل جاء في ختام الآية للتنزيه والتقديس لجلال الله –تبارك وتعالي–، وقد يكون التذييل هنا لترجيح بعض المعاني وهو أن التسبيح بلسان الحال لا المقال.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي:١١/ ٤٢٨.

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِىٰ وكِفَايةُ الرَّاضِىٰ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي، ت: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت، ٦/ ٣٥.

في مقام الدلالة على القدرة وإحكام القبضة

الموضع الثاني

يقول الله تعالي: ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة فاطر:٤١].

الختم بالحليم الغفور واضح فيها، ودقته في مكانه لا يخفي علىٰ المتأمل فقد سبقت بقوله تعالي: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:٤٠].

والآية تدور حول أولئك الذين اتخذوا شركاء من دون الله وهو ظلم عظيم، وبهتان كبير، حق للسماوات والأرض أن تنهد من هذا الإفك المبين.

" جاء هذا الشاهد في مقام التدليل علىٰ قدرة الله لإثبات وحدانيته، والجمع بين السماوات والأرض يناسب استهلال السورة﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سورة فاطر:١]، فالذي فطرهما قادر علىٰ إمساكهما من أن تزولا أي: تفقد نظامهما الذي به حفظ الحياة بما فيها ومن فيها، ولا يمنع ذلك إلا الله بسلطانه وهيمنته لذا جاء بالإخبار بلفظ الجلالة(الله) مؤكدًا بالفعل المضارع الدال علىٰ دوام حفظهما إلىٰ أن يأتي وعده، وتتناسب مع ختام السورة ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة فاطر:٤٥].

وتتفق مع آية النحل ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة النحل: ٦١].

وأقسم علىٰ أن الزوال لو حدث(بإراداته) لا يمنعهما أحد بعده لذلك قلت الدليل يجمع القدرة والوحدانية في زمان واحد؛ لأن الدليل جمع لله كل شيء بإمساكهما نظير فقد شركائهم كل شيء حيث قال لهم قبل الدليل مباشرة ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة فاطر: ٤٠].

هذا السؤال بما يحويه يجمع المهانة والتبكيت والتوبيخ لهم خاصة شركاؤهم أصنام لا تقي ولا حاجة لهم، يحتجون بها علىٰ وجود الشريك ولا كتاب يدعوهم لذلك، ولما سَلب منهم كل هذا دعمَّ لهم بالدليل القاطع قدرته وبسط سلطانه علىٰ كل شيء؛ لأن إمساك السماء والأرض حفظٌ لهما بكل ما يحويانه وتلك هي الشمولية.

والتعبير بـ (يمسك) يدل علىٰ ضالتهما (السماء والأرض) بالنسبة لقدرته وقيوميته سبحانه، وفيه تصوير لذلك كما يمسك الواحد الشيء الصغير بقبضته فلا يستطيع الإفلات إلا إذا أفلته بنفسه فكذلك امساك الحق لهما تصوير لقدرته بطريق المثل، كما يقول: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

فقد ذكر الإمام عبد القاهر أننا نَصير إلىٰ القدرة من طريق التأويل والمَثَل، فنقول: " إنّ المعنىٰ والله أعلم أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر الله وقدرته، وأنه لا يشذّ شيءٌ مما فيها من سلطانه عزّ وجلّ، مَثَلُ الشيء يكون في قبضة الآخذِ له مِنّا والجامع يده عليه، كذلك حقُّنا أن نسلك بقوله تعالىٰ: [مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ] هذا المسلَك، فكأنّ المعنىٰ - والله أعلم - أنه عزّ وجلّ يخلق فيها صفةَ الطيّ حتىٰ تُرَىٰ كالكتاب المطويِّ بيمين الواحد منكم "[1].

وكذلك الشأن هنا [يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ] الإمساك هنا علىٰ طريق التأويل والمثل فمثلهما كمثل الشيء يُمسك في القبضة فلا يتصرف فيه إلا مالكه، والغرض من هذا التأويل والمثل هو تصوير القدرة الإلهية الحقة وتصوير هذا الكون بالنسبة لها وهذا خلق الله وتلك قدرته، فماذا لشركائم الذين تدعون من دون الله ؟ وتلك بلاغة التعبير بـ (يُمسك). فله موقعه في نظم السورة فبعد أن أطنب في مواقف المشركين ومحاجتهم، وذلك في قوله تعالي: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [سورة فاطر:٣].

وقوله: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ [سورة فاطر:١٤]. ونحو ذلك مما انتظمته السورة في بنائها بعد كل هذه المواقف أراد أن يبين لهم أن هذه أفعال تهتز لها السماء وتتحرك لها الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه الأستاذ / :محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة،١٤١٢ هـ-١٩٩١م.، ٣٥٩.

مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة مريم:٨٧-٩٢].(١).

﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ يقول: ولو زالتا ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ يقول: ما أمسكهما أحد سواه. ووضعت "لئن" في قوله ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ في موضع "لو" لأنهما يجابان بجواب واحد، فيتشابهان في المعنىٰ، ونظير ذلك قوله تعالي: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الروم:٥١]، بمعنىٰ: ولو أرسلنا ريحًا، وكما قال :﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، بمعنىٰ: لو أتيت. وقد بيَّنا ذلك فيما مضىٰ بما أغنىٰ عن إعادته في هذا الموضع(٢).

التحليل البلاغي للفاصلة:

وقوله في هذا الموضع:[إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] فإن قومًا سألوا فقالوا: لِمَ كان في هذا الموضع ذكرُ الحلم والمَغْفِرَةِ وهذا موضع يدل علىٰ القدرة؟ فالجواب في هذا: أنه لما أمسك السَّمَاوَات والأرض عند قولهم: [اتَخَذَ الرحْمَنُ وَلَداً] حَلُمَ فلم يُعَجِّل لهم بالعقوبة وأمسك السماوات والأرضَ أن تزولا من عظم فِرْيَتِهِمْ، ولأن هذه

(١) الإعجاز البلاغي في الآيات الكونية (السماوات والأرض) أد/ السيد محمد سلام، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد ٢٤، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ٧٠٨- ٧١٠.

(٢) تفسير الطبري٢٠/ ٤٨١

الأشياء همت بما همت عقوبة للكفار، فأمسكها الله تعالىٰ، ولم يدعها أن تزول تركا للمعالجة في العقوبة، وكان ذلك حلمًا منه جل جلاله[1].

"ناسب ذلك التذييل ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ؛ لأن الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة، والغفور هو الذي يغفر لمن تاب ولم يرد هذا التذييل إلا في موقعين أحدهما الدال علىٰ تأخير الحدث إنفاذًا لوعد الله وتطبيقًا لرحمته.

وثانيهما في تسبيح الكون كله لله، وذلك في مقام تنزيه الحق سبحانه من الشريك وإثبات عظمة تقولهم هذا ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٤٠].

وهذا يستدعي العقاب المباشر ولكنه حليمٌ وذاك شأنه، غفور لمن رجع إليه.

فالموقف في الإسراء استدعي التعقيب مناسبة لما سبقه من تحذيرات وتوجيهات، كقوله تعالي: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٣١-٣٤]. حتي قالوا: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٤٠].

---

(١) يراجع: معاني القرآن وإعرابه٤/ ٢٧٤ ت: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ)، عالم الكتب – بيروت، ط الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م، وتفسير القرآن، ت: أبو المظفر، السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط: الأولىٰ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م. ٤/ ٣٦٣.

وكذلك الشأن في شاهدنا كما سبق حين استحسنوا سيء أعمالهم ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [سورة فاطر:٨].ولم يستجيبوا لأمره ولم يرتدعوا بدلائل كونه وادعوا له شركاء وفعلوا ما استدعي أن تهتز له السماء وتتحرك له الأرض، فبيَّن أنه كان حليمًا غفورًا"[١].

ثم نزه نفسه عن كل شريك وأثبت تسبيح الكون كله، فكانت مخالفة النواهي السابقة وعاقبة هذا الافتراء العقوبة السريعة، فأثبت أنه كان حليمًا غفورًا، وهذا داعي السياق بهذا.

فإن قيل: فما معني ذكر الحليم هنا؟ قيل: لأن السماوات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار، فأمسكها الله تعالي عن الزوال بحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة وكانتا جديرتين بأن تهدَّ هدًّا لعظم كلمة الشرك كما قال تعالي: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة مريم:٩٠]، ولذا حَلُمَ علىٰ المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عِظَمِ جُرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة، وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه، فلا يتوهم أن المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة[٢].

ويضيف العلامة البقاعي ملمحًا لطيفًا حين يقول:[حليمًا] أي:ليس من شأنه المعاجلة بالعقوبة للعصاة لأنه لا يستعجل إلا من يخاف الفوت فينتهز الفرص،

---

(١) الإعجاز البلاغي في الآيات الكونية أد/ السيد محمد سلام، ٧١٠وما بعدها.

(٢) يراجع: الكشاف ١/ ١٠٤٠، ومعالم التنزيل للبغوي (ت: ٥١٠هـ) تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ،٣/ ٧٠٠، وروح المعاني:٢٢/ ٢٠٤.

ورغب في الإقلاع مشيراً إلىٰ أنه ليس عنده ما عند حلماء البشر من الضيق الحامل لهم علىٰ أنهم إذا غضبوا بعد طول الأناة لا يغفرون بقوله: [غفورًا] أي: مَحَّاء لذنوب من رجع إليه، وأقبل بالاعتراف عليه، فلا يعاقبه ولا يعاتبه"[1].

وهكذا يتبين لنا أن [الحليم] قُدم ليناسب ما هو عليه الواقع من حلمه بهم علىٰ عظيم جرمهم، و[الغفور] الذي يغفر لهم إن هم تابوا عن قولهم وأقلعوا عن كذبهم، فلولا حلمه ومغفرته جلَّ جلاله لزالتا عن أماكنهما، سبحان المدبر للملكوت!

موازنة بين الآيتين السابقتين:

١- تقدم الحلم علىٰ المغفرة في هاتين الآيتين دون غيرهما.

٢- دخول (كان) عليهما دون الآيات التي مرَّ ذكرها في البحث، فأفادت ثبوت الصفة ولأنها مختصة بالذات العلية، وبأمور عقائدية في المقام الأول.

٣- قدم ذكر(السماوات) دون (الأرض)؛ لأن آيات الله في السماوات أعظم منها في الأرض، فقد رُفعت بلا عمد، وزُينت بالكواكب والنجوم وغير ذلك دلالة علىٰ عظمة الخالق، وجميل صنعه وقيوميته.

٤- وردت الآيتان في تعداد المظاهر الكونية العلوية، والعلامات الواضحات التي لا تخفىٰ علىٰ العقلاء،" فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها؟ من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمَت ولا عِوج، ثم تأمل ما وضُعت عليه

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ١٦/ ٧٢

من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له، ويقول في موضع آخر: "ثم تأمل الممسك للسماوات والأرض الحافظ لهما أن تزولا، أو تقعا، أو يتعطل بعض ما فيها، أفترىٰ مَن الممسك لذلك ومَن المقيم بأمره، ومَن المقيم له، فلو تعطلت بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه، وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان... "[1].

٥- توافق المطلع مع المقصد، حيث ورود التوكيد في بداية الآية ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾، بدلالة النفي والاستثناء ذات النبرة الجهيرة الحاسمة، مع ختامها﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وكذلك ارتد المقطع إلىٰ المطلع في إمساك السماوات والأرض [إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا] مع ختامها [إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] دلالة علىٰ إحكام القبضة، وبيان المقدرة، في مقابل سلبها من هؤلاء الذين يعبدون غير الله تعالي، وسياق السورة يشهد بذلك كما مر سابقًا.

(١) مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، ٢٠٧، ٢١٥ وما بعدها، دار الكتب العلمية – بيروت

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة الله للعالمين، سيدنا محمد- ﷺ- النبي الأمين، وعلىٰ أصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم محسنًا إلىٰ يوم الدين، وبعد:

هذه التطوافة في رياض القرآن الكريم والعيش في رحابه، ومحاولة تدبر الآيات القرآنية التي اشتملت علىٰ اسم الله [الحليم] تبينت لي بعض النتائج، منها:

- من فوائد ذكر الأسماء الحسني في أواخر الآيات أن الله تبارك وتعالي يحثُ خلقه علىٰ التمسك بها والعمل بمقتضاها.
- ورد لفظ [الحليم] وصفا للأنبياء في ثلاثة مواضع ثنتان في قصة سيدنا إبراهيم واسحاق- عليهما السلام-، وواحدة في تهكم واستهزاء قوم مدين بنبي الله (شعيب)- عليه السلام-، كما ورد صفة للذات العلية في أحد عشر موضعًا.
- لم يرد اسم الله [الحليم] منفردًا في الفاصلة، وإنما أتي مقترنًا ؛ لينتج عن الاسمين الكريمين معني دقيقًا خفيًا يشع من بين جنبات الاسمين، وهذا من أشرف المعارف.
- كشف السياق عن المناسبة بين ختم الآيات بالحلم مع مطلع الآية ومقصدها، ومحيط السورة العام عبر مناسبات تتفاوت وضوحًا وخفاء، مما يحتاج لشحذ همة، ونفاذ بصيرة كما ظهر في أثناء البحث.
- اشتملت خواتيم الآيات علىٰ أساليب توكيدية عدة تراوحت بين مؤكد واحد، أو أكثر، حسب استدعاء المقام وتوظيف السياق.
- مجيء اسم الله [الحليم]علىٰ صيغة المبالغة، وهي صفة كمال لله تبارك وتعالي.

- اقترن اسم الله [الحليم] بـ[الغفور] في أربعة مواضع، وبـ[العلم] في ثلاثة، وبـ[الغني والشكر] في مرة واحدة.
- اقتران [كان] بالذات العلية في الأمور العقائدية كما ورد في سياق التنزيه وتسبيح المخلوقات، وإمساك الأرض والسماوات، ومع خصوصية النبي - ﷺ - مع أزاوجه.
- تكرار لفظ الجلالة [الله)] في مواطن كثيرة ؛ لتربية المهابة، وبث الثقة في نفوس الناس، وإحضاره في ذهن السامع، مما يوجب تمام المراقبة والحذر الشديد.
- قدم [الحلم] علىٰ [المغفرة] في موضعين يخصان العقيدة والحكمة الإلهية، وهما تسبيح الكون العظيم بكل ما فيه، وإمساك السماوات والأرض من الزوال.
- اقتران الاسمين الجليلين في نهاية الآيات؛ للتنبيه علىٰ أن الأحكام الواردة المتعلقة بما يصلح أحوال الناس كأمور الزواج والميراث فينظم لهم حياتهم، وتستقيم أمورهم، وفيها من التحذير والتخويف، لأنها تؤدىٰ إلىٰ الثواب والعقاب.

ثبت بالمصادر والمراجع

- **البحر المحيط في التفسيرت**: أبو حيان الأندلسي تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، ط: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- **البديع في نقد الشعر**، ت: أسامة بن منقذ الكناني الشيزري (ت: ٥٨٤هـ) تح: الدكتور أحمد أحمد بدوي- وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- **بديع القرآن** لابن أبي الأصبع المصري تح د / حفني شرف، دار نهضة مصر.
- **البرهان في علوم القرآن** ت: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ط: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.
- **التحرير والتنوير** للشيخ/ الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** ت:/ ابن أبي الإصبع تح: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- **التعريض في القرآن الكريم** أد/ إبراهيم محمد عبد الله الخولي (رحمه الله وطيب ثراه) دار البصائر، ط الأولي، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- **الإتقان في علوم القرآن** للإمام السيوطي تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- **التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الكريم** د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة ط الثالثة/ ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

• **تفسير أبي السعود** ت: أبو السعود العمادي دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• **تفسير الجلالين** ت: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،دار الحديث – القاهرة.

• **تفسير ابن عرفة** التونسي المالكي، أبو عبد الله، تح د/ حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط: الأولىٰ، ١٩٨٦ م.

• **تفسير ابن كثير**، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط: الأولىٰ – ١٤١٩هـ.

• **تفسير الرازي** ت: أبو عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط: الثالثة– ١٤٢٠هـ، ٢٠٠م.

• **تفسير المنار** ت: محمد رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م.

• **أثر السياق في بنية الآيات المنتهية بأسماء الله الحسني دراسة تحليلية** د/ هانم محمد حجازي الشامي، مكتبة الآداب، القاهرة ط الأولي، ٢٠١٣م.

• **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي تح: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط:الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

• **جامع البيان في تأويل القرآن** ت: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري تح: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة،ط: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

• **حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك**، ت: أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط: الأولىٰ ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م.

- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، لشهاب الدين الخفاجي، دار صادر – بيروت.
- جامع الرسائل الإمام ابن تيمية تح د / محمد رشاد سالم، دار العطاء– الرياض، ط: الأولىٰ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- خصائص التراكيب أد / محمد أبو موسي مكتبة وهبة، ط السابعة.
- دلالات التراكيب أد / محمد أبو موسي ط الثانية،مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م.
- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي تح/ عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت ط: الأولىٰ– ١٤٢٢هـ.
- روح المعاني ت: شهاب الدين محمود الألوسي، تح/ علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤١٥هـ.
- الأسماء والصفات ت: أبو بكر بن الحسين بن علي البيهقي: تح/ عبد الله بن عامر، دار الحديث – القاهرة.
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهرالجرجاني(ت: ٤٧١هـ)،قرأه وعلق عليه الأستاذ/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة،١٤١٢ هـ– ١٩٩١م.
- شرح أسماء الله الحسني للإمام بن القيم تح: د/ عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط الأولي، ١٤٢٨هـ–٢٠٠٨م.
- شرح التصريح على التوضيح ت: خالد بن عبد الله الجرجاويّ المعروف بالوقاد، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان، ط: الأولىٰ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.
- صحيح مسلم تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• صحيح البخاري تح:محمد الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

• صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرنؤوط – بيروت ط: الثانية، ١٤١٤ هـ– ١٩٩٣م.

• عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

• علم المعاني د/ صباح دراز مطبعة التركي طنطا–١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

• علاقة المطالع بالمقاصد في القران الكريم دراسة بلاغية نظرية–تطبيقية، أد/ ابراهيم صلاح الهدهد ط الثانية، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ–٢٠١٩م.

• فتحُ البيان في مقاصد القرآن، ت: أبو الطيب محمد صديق خان، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

• فتح القدير للشوكاني دار الكلم الطيب– دمشق، بيروت، ط:الأولىٰ– ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

• فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي دراسة وتحقيق، للباحث/ حسن بن أحمد بلغيث الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٥هـ– ١٤١٦هـ.

• الفروق اللغوية أبو هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

• في ظلال القرآن الشيخ سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق– بيروت– القاهرة، ط: السابعة عشر – ١٤١٢هـ.

- **كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر**، أبو هلال العسكري تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**:الإمام الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي– بيروت ط: الثالثة – ١٤٠٧هـ.
- **لسان العرب** ابن منظور دار صادر – بيروت ط: الثالثة – ١٤١٤هـ.
- **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل** د/ فاضل السامرائي، دار عمار، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** لابن عطية الأندلسي، تح:عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية– بيروت، ط: الأولىٰ– ١٤٢٢هـ.
- **معالم التنزيل** للبغوي تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.
- **معاني القرآن وإعرابه**، ت:إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج(ت: ٣١١هـ)، عالم الكتب – بيروت، ط الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، للإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ت: ابن هشام تح: د/ مازن المبارك، دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥م.
- **مفتاح دار السعادة** للإمام ابن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.
- **المقتطف من عيون التفاسيرت**/ مصطفي حسن المنصوري، دار السلام، ط الأولي، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

• **المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسني وصفاته العلا**، للإمام شمس الدين القرطبي، تح: الشحات أحمد الطحان. مكتبة فياض، ط الأولي،١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

• **الموافقات** للعلامة الشاطبي تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان دار ابن عفان، ط: الأولىٰ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

• **منهج البحث البياني القرآني عن المعني في سياق السورة** أد/ محمود توفيق سعد، مطبعة الإخوة الأشقاء – مصر.

• **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي**: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

• **نونية الإمام ابن قيم الجوزية**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ط: الثانية، ١٤١٧هـ.

• **وراء مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم** أد/ إبراهيم صلاح الهدهد، العدد الثالث عشر، حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المستخلص	١٧٢٤
٢	المقدمة	١٧٢٨
٣	التمهيد	١٧٣٢
٤	فاصلة اسم الله الحليم بين المكي والمدني	١٧٣٦
٥	المحور الأول: دلالة اقتران المغفرة بالحلم.	١٧٣٩
٦	المحور الثاني: دلالة اقتران العلم بالحلم.	١٧٦٦
٧	المحور الثالث: دلالة اقتران الغني والشكر بالحلم	١٧٨٥
٨	المحور الرابع: تقديم الحلم على المغفرة.	١٧٩٧
٩	الخاتمة	١٨١٥
١٠	ثبت المصادر والمراجع	١٨١٧
	قائمة المحتويات	١٨٢٣